حقوق المثقفين

★

منذ سنوات عديدة ونحن ما نفتأ نتحدث عن واجبات المثقفين العرب، واحسب انه قد ازف الوقت لان نتحدث عن حقوق المثقفين العرب ايضاً . فلئن كان التنبيه الى واجباتهم ضرورياً لان الطابع الذي كان يميزهم هو طابع الانعزال عن مشاكل المجتمع العربي ، فـان التنبيه الى حقوقهم لا يقل عن ذلك ضرورة في بلاد لا يتمتع الفكر فيهـا بالاحترام الذي ينبغي له ، وقد خضعت حرية العمل الفكري على صعيدها ، لنير الحكام المستبدين زمناً طويلاً ، فعانت الثقافة فيها ، وهي ارفع تعبير لحياة الامة ، اضطهاداً عنيفاً ، واعلنت على جهودها التحررية حرب شعواء ، وظلت يد السياسة الرعناء ، منذ عهد هولاكو الى عهد عبد الحميد الى عهدنا هذا ، تحطم دائماً اجنحة الثقافة وتقعد بهـا عن التحليق الى الذرى التي تطمح اليها ، حتى اضطر اكثر المفكرين الى التماس الحرية في المهاجر ، وبقي الآخرون يجاهدون على ارض الوطن او يدفنوا مواهبهم في ترابه .

غير ان التنبيه الى هذه الحقوق قد بات ضرورياً في هذه الايام على الاخص، لأن شدة تأكيدنا على واجبات المثقفين، قد اوهمت بعض السياسيين ، ان رجال الفكر يجب ان يكونوا مجرد دواليب عمياء في عجلة المتزعمين من رجال السياسة . وقد بلغ من استهانة هؤلاء بقيمة الفكر ، وهو اجل ما انجبه التطور البشري وانبل ما تعتز به امة على امة ، ان الرجل منهم لم يعد يهمه الا ان يحشر حوله جمهوراً من الانصـار يصفق له مهما كانت قيمة هذا الجمهور من الوجهة الفكرية ، وقل بينهم من يحيط نفسه بالمفكرين الصادقين الذين يساعدونه على السير سيرة هادية مهدية .

ذلك ان السياسي حريص على زعامته وان ضحى من اجلها بمبدئه او بجانب منه، والمفكر حريص على مبدئه الذي نذر نفسه له يخدمه في صمت ولا يفرط فيه مهما كانت المغريات التي تزين له ذلك. ومن ثم كان همّ السياسة المسيطرة في بلادنا، منذ مئات السنين ، توقيف نمو الفكر، وقتل الانسان المفكر؛ لان المسيطر يعرف بغريزته ان اخطر اعدائه هو عقل الانسان، فيسعى بجميع الوسائل لخنقه وتشويهه والقضاء عليه ، وقد كنا نرجو ان يبادر المسؤولون في سوريا ولبنان ، مذ تحرروا من السيطرة الاجنبية، الى تغيير ذلك الوضع، والعمل على تزويد الوطنيين بالقوة التي تساعدهم على حماية الانتصارات التي احرزوها ، وبلوغ انتصارات جديدة . . فاذا بالنهج الذي تنهجه السياسة المسيطرة لا يكاد يختلف عن نهجها في العهد السابق . . وسبب ذلك ان اكثر ساستنا هم ابناء ذلك العهد نفسه قد تخلقوا باخلاقه ، وعاشوا في ظله مغامرين . .

ونحن حين نتحدث عن القوة التي نحتاج اليها ، لا يتبادر الى اذهاننا قط الدبابة والمدفع ، لاننـا امة لا تستطيع ان تجاري الدول الكبرى في هذا المضمار ، وانما نعني الثقافة قبل اي شيء آخر . فنحن بحاجة ، اكثر من اية امة اخرى ، لان نتسلح بالثقافة ، لانها مبعث كل وعي قومي ، ومصدر كل عمل مبدع ، واساس كل نهضة صحيحة .

في هذه الايام التي يطل فيها على بلادنا الشهيدة، فجر حياة حرة جديدة ، يأتي دور المفكرين العرب الواعين المستنيرين في الطليعة ، طليعة مبدعي هذه الحياة . ان التاريخ هو الذي يدعوهم الى هذا المكان كي يحتلوه بجدارة وحق، اذ عليهم في الدرجة الاولى ، يتوقف نهوض امتنا الى المصاف التي تطمح اليها .

وان جماهير الشعب المتيقظة هي التي ينبغي لها ان تسهم بالقسط الاوفر لبلوغ المفكرين العرب الواعين المستنيرين ذلك المكان الخليق بهم ، فهل لهذه الجماهير المتيقظة ان تدرك اخيراً مدى الفوضى التي يضعها فيها اولئك المغامرون من اصحاب سياسة الارتجال او سياسة الانتهاز ، والاغراض الانانية التي يسخرونها لها ، وهل لهـا ان تعرف للمفكرين حقوقهم حتى يستطيعوا اداء واجباتهم على احسن وجه .

قدري قلعجي

يوم المقابر بين رينان وغادة الكاميليا

من باريس ... الى سلوى

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

☆

« ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ... »

صدقت يا إلهي ! فقد اختطفتني باريس ، تلك اللعوب الغادرة ثم اقتادتني بأناملها الوردية الى حيث ألهاني الأنهم الساغب من فرط الحرمان الكليل عن تلمس هياكل عبادتي الصامتة في ملكوت الفكر ، جئت حاجًا قانتاً لهداتي الروحيين ، فانكفأت عما قليل ضالاً يستعذب الشرود بين أتاويه الجسد فلا يغذوه الا قوت الحواس ، وقد ألقى إليّ ناموس الحياة العنيفة معاذيره فتلقفها العقل المنــافق بين عبوس الماضي ولهفة الحاضر .

سبحانك ، اللهم ، سبحانك! وغفرانك ، يا سلوى ، أي غفرانك!

لم يكن ثمت عاصم من أمر الجسد الذبيح الا أن اعطف على المقابر ، وما أروع المقابر في باريس ! قد يكون في غيرها ما هو أرفع منها فناً وأكبر عراقة وأصالة ، كمقابر «جنوة» وأضرابها ، لكن لا شيء منها يعدل مقابر باريس غنى بالذكريات والاشخاص الأعزاء لدى كل القلوب . فهنا بساطة المقبرة وجلالة المقبور ، وهنا أطياف الماضي القريب تتواثب أمام المخيلة عرمة بالحياة عامرة بالأنفاس الحارة . القبر متواضع ، لكنه بني بحجارة من اعجاب ، والازهار قليلة ، لكنها تندى بدموع المحزونين وتسقى من قلوب العاشقين ، والطرقات لزبة خشنة ، بيد أنها مرصوفة بأنبل الذكريات .

فبعيداً عن زحمة الأحياء اللاهين ، تعالي معي يا سلوى الى تلك المعابد الصامتة للاموات الاحياء الخالدين . وتعالي معي أولاً الى المقبرة التي يرقد فيها جثمان عزيزنا الاول ، رينان ، ألا وهي مقبرة مونمارتر وانت تعلمين ما هو حي مونمارتر في باريس . انه حي باريس الآثمة المنهوكة بين أحضان عبادة فلوس وفينوس ، وقد كان منذ عهد قريب حي الفنانين الشاردين ممن أبدعوا النزعات العصرية في الفنون وبخاصة في التصوير ، وهو مع هذا ايضاً حي القداسة المترفعة فوق رابية مونمارتر ، حيث تستضحي كنيسة قلب يسوع المقدس Sacré-Cœur بعمارتها الناصعة ذات الطراز الحديث الثقيل . فهذا الحي اذن أروع تعبير عن الحياة العنيفة في ضفتيها ، وهل القداسة الا ذروة شهوة !

المقبرة مقسمة الى قطع تفصل بينها طرقات ضيقة امتدت على جوانبها بواسق الاشجار ، ولكل قطعة رقمها حتى يهتدي به السالكون ما دخلت الباب حتى يممت عن شمال الى القطعة رقم ٢٢ التي يرقد في أرضها جثمان رينان . كنت اقرأ الاسماء على كل ضريح ، وهأنذا في تلك القطعة ، لكني لا أرى اسم رينان . أواه ! أواه ! ان أتفه الناس في هذه المقبرة قد ظفر باسمه محفوراً على الناووس أو المقبرة ، أما رينان العظيم فقد أغفلوا اسمه . لكن «الدليل» صريح في أنه دفن في هذه القطعة الى جوار حميه ، آري شيفر ، الفنان المشهور ، وها هو ذا قبر مظلم قد نقش فوقه اسم آري شيفر ، فلا بد إذن ان يكون رينان مدفوناً في نفس المكان . وآية ذلك ان غصناً من الصفصاف الجاف لا يزال معلقاً بباب القبر ، والاحتفال باقامة متحف رينان في بلده تريييه Treguier كان منذ قليل . فلعل أحد الاقارب او المعجبين قد وضع هذا الغصن الجاف على قبره بمناسبة هذه الذكرى التي جمعت شمل المعجبين والناقمين في هدوء بتلك البلدة النائية في أقاصي اقليم بريتاني في فرنسا ، فمضى اليوم هادئاً يرفرف عليه جناح السلام ، بعكس ذلك اليوم العاصف الصاخب الذي احتفل فيه بوضع تمثال رينان في بلده سنة ١٩٠٣ بين ضجيج الساخطين وهتاف المعجبين .

كم من هموم اعتلجت في صدري لما أن رأيت هذا الاهمال او كم ثارت في نفسي على المسئولين عنه ، اولئك الذين يزعمون لأنفسهم احتكار شئون الموتى ، لهذا سرعان ما دلفت من حيث أتيت ، سعياً وراء أزهار لازوردية أضعها على هذا القبر المجهول المغمور ، حتى يحين الأوان كيما نضع هذا الجثمان الطاهر «في الاكفان اللازوردية التي يرقد فيها الآلهة الموتى» ، كما قال «في صلواته على الأكروبول» .

آه ! أين انتم يا أصدقاء رينان ؟ وكيف أغمضتم أجفانكم على هذا النسيان والطغيان ؟ ! لماذا تركتم الظلمة العابسة تخيم على قبر هذا الذي حمل لكم جميعاً مشعل النور ، وعلى شفتيه بسمة

رائعة سجدت لها اصنام الجاحدين .

لم يكن في وسعي ان أقدم غير ازهاري اللازوردية عسى ان يكون فيها لنفسي ما يوهمني انها تلك الاكفان، فاتكوني اذن ايتها الازهار شفيعاً بعض الشفاعة لدى عزيزنا الاكبر هذا، فلقد سقيتها من عبرات الاسى والاعجاب .

لذا لم أتلبث امام هذا القبر الا قليلاً ، وتلفت الى "خلف عن يميني لزيارة الخالدين الآخرين، وانا مشترك الخواطر أميد من الأسى فرأيت قبراً يرقد فوق ناووسه تمثال منبسط لاسكندر ديما الابن ، فتمهلت قليلاً استعيد ذكرياتي معه ، فتنبثق في التو «غادة الكاميليا» وقصتها لا تزال تنبض بالدم في عروقي . و«الدليل» يشير الى قبرها في مقبرة مونمارتر هذه نفسها في القطعة رقم ١٥ ، فلأدع ديما راقداً فوق ناووسه مستظلا بسقفه الحجري، ولأتوجه الى قبرها هي ؛ فهي التي تعنيني .

اما « غادة الكاميليا » هذه فهي ابنة الهوى ماري دوبلسي Marie Duplessis كما لقبت نفسها لما ان طرقت أبهاء الدنيا الزاهرة ، او الفونسين بلسي Alphonsine Plessis كما هو اسمها الاصلي الحقيقي . وقد ولدت من اسرة فقيرة حقيرة في السادس عشر من كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٢٤ ، فقاست في ايامها الاولى مرارة الذل والفاقة والتشرد في مسقط رأسها نونان Nonant بمقاطعة الاورن Orne . وماذا عسى ان يكون امرها غير هذا ، وابوها رجل عرف بالشر والقسوة والفجور ، وما كان افظع قسوته على ذويه ، حتى اضطرت زوجه الى الفرار من جحيمه الى حيث راحت تخدمه سيدة انجليزية تقطن مدينة جنيف ، تاركة بنتيها ، دلفين الكبرى ، والفونسين التي تصغرها بعامين ، الى أقربائهما . فظلت فتاتنا هذه الفونسين ، تهيم على وجهها في الحقول الى ان بلغت الرابعة عشرة ، فهجرتها الى باريس ، وهناك ضاعت في زحمة هذه الدنيا الواسعة ، وهي لا ترتدي غير اسمال بالية ، بيد انها ضاعت فيها لتتفقد طريقها ، وذلك دائماً شأن المدن الكبرى : يضيع المرء فيها ليجد نفسه . فبدأت بأن شقت طريقها في حياة العمل ، فاشتغلت لدى سيدة ازياء ، او لدى غسالة . والذين يعرفون باريس المغمورة يعرفون جيداً هذا النوع من الفتيات اللائي يطلق عليهن اسم midinettes ، واللائي خلد ذكرهن هنري مورجيه في قصته المشهورة : « مناظر من الحياة البوهيمية » ، ومثلهن في شخصية ميمي بنسون الخالدة . فهن من اللواتي يقضين النهار في العمل لدى سيدات الازياء ، وفي المساء يغشين المراقص والحانات بصحبة الشباب الصاخب الفقير ، وفي ايام الآحاد في الربيع واوائل الصيف يتوافدن على المراقص الريفية او في الهواء الطلق ، ولا متعة لهن غير هذه الرقصات الرخيصة التي لا تكلف شيئاً غير كوب من الليمون ، او قطعة تافهة من الحلوى الطرية الرديئة . وتراهن امام واجهات المطاعم الهزيلة تتلمظ شفاههن ، ولات ساعة مغيب . ومع هذا يحيين حياة صاخبة يستمتعن بها الى أبعد حد ، ويبقين على هذا النحو دون أن يطمعن في المزيد ، مادام لم تمتد اليهن تلك الايدي الناعمة الكاذبة التي تقتادهن يوماً الى مطعم جيد أو ملهى فاخر ، هنالك تضطرب حياتهن الى أبعد حدود الاضطراب ، حتى تقتحمها العاصفة المدمرة التي ترتفع بها الى قمة الحياة العالية ثم تهوي بها عما قليل الى هاوية الحياة السحيقة : البؤس الكظيم المليء بالذكريات الأليمة ان جاوزن الثلاثين ودلفن الى الشيخوخة الكالحة اللائي يفقدن فيها كل وسائلهن ، او الموت العاجل في مطلع الشباب المبذر الفاجر ، وغالباً ما يكون بتأثير علة خبيثة من تلك العلل الملازمة لهذا النوع من الحياة الذي يتخذنه : وبخاصة السل .

ولهذا النوع من الفتيات معارج يسلكنها في طريق هذه الحياة تبدأ بمرحلة غشيان مجامع الطلاب في الحي اللاتيني ، فيشدين من هذه المعاشرة حظاً من الثقافة سيكون لهن نعم العون لما ان تبسم لهن الحياة العالية المشرقة . ولهذا فان للفتيات اللائي يغشين الحي اللاتيني حتى اليوم شهرة في هذا الباب : فهن الخلايا الاولية للغادات الدنيويات اللائي سيسيرون عما قليل محافل الشانزليزية ، وتراهن اذا ما شببن عن طوق الحي اللاتيني وغشين أندية الشانزليزية يجدن المًا بالغاً اذا حدثتهن عن الحي اللاتيني ، فذكرتهن بذلك الماضي التعيس ولذا لا ترى مكاناً ابغض اليهن من ذلك الحي : وتراهن يكتفين بالاشارة اليه على انه من « الضفة اليسرى » وكفى هذا تحقيراً له في نظرهن ، جرياً وراء تلك المنابذة المشهورة بين « الضفة اليمنى » وبين « الضفة اليسرى » ، والتي ترى الفرنسيين ، والفرنسيات على وجه التخصيص حاسين كل الحساسة بالنسبة اليها . واذا كان ثمت عوامل عدة قد دعت الى وجود هذه المشاقة فيما بين ساكني ضفتي نهر السين ، فلا شك ايضاً في ان لهذا النفر من الفتيات اللائي نتحدث عنهن اثراً ان لم يكن في ايجادها ، ففي تقويتها والمبالغة في توكيدها .

ونعود الى الفونسين ، فنجد حظها حظ اترابها : عرفت مجامع الطلاب ، لكنها مجامع ان صلحت لزيادة الثقافة والصخب واللهو الرخيص ، فهي لا تصلح لمن تريد ان تشق طريقها الى المحافل العالية في « الضفة اليمنى . » فسرعان ما انتابها ما ينتاب حياة الطلاب الفرنسيين والاجانب البائسين الشاردين في باريس : فقر وذل ،

وبطن خاوية وعمل شاق ، ان وجدت اليوم كسرة خبز او غرفة سطح تؤويها ، ففي غد ستطوي بطنها جوعاً وتأوي الى مقعد في مفارق الطرق او تحت جسر من جسور السين تقضي عنده ليلها المظلم الطويل .

لكن جاء اليوم المحتوم ، يوم ان اقتادها صاحب مطعم في رواق مونبانسييه Montpensier في الباليه روايال Palais - Royal في قلب الضفة اليمنى ، اقتادها الى ضاحية سان كلو Saint-Cloud فذاقت لأول مرة طعاماً ممتازاً وركبت مركباً فاخراً ، وقضيا ليلة عامرة بالمباهج التي اذهلت تلك العيون الكليلة التي لم تعرف غير الاضواء الخافتة في طرقات سانت جنفياف والمضاجع الخشنة عند اسوار حديقة اللكسمبور . اجل ! كان فارسها قد خوى عموده ونقضت السنون مرته ، لكن ما قيمة هذا عندها الى جانب هذه الالوان الصاخبة التي تغمرها ! وهو الى جانب هذا كان لا يزال للحب في قلبه مكانة ، فاشتعل بالفتاة الشاردة غراماً ، حتى استأجر لها شقة انيقة صغيرة في شارع الاركاد L'Arcade ثم انها قبل هذا ما اتخذت ذلك الرجل الا مطية للولوج الى حرم الحياة الواسعة والدنيا البهيجة . لهذا سرعان ما هجرته الى رجل سيد عظيم وهما خارجان من رقص عام ذات مرة . وذلك السيد هو الكونت دي جيش في ذلك الحين ، ومن بعد سيصير باسم دوق دي جرامون Duc De Gramont ، وكان في ريعان شبابه وناضج فحولته ، اذ لم يكن يكبرها الا بخمس سنوات ، وكان يبذل عن سخاء .

وبالجملة كان ولدا متلافاً وهدفاً مرموقاً من كل الفتيات فواعجباً لحظ الفونسين ! استغفر الله ، واستميحها العذر ، فلم يعد خليقاً ان ندعوها بهذا الاسم المتواضع ، بل يجب ان ندعوها بكل تبجيل باسمها الجديد الذي اختارته آنذاك ، اسمها الدال على النبالة الجديدة التي اكتسبتها لسنا ندري كيف ، الا وهو : ماري دبلسي . ولولا تظن بنا السخرية لأضفنا اليها لقب : كونتس ، او دوشس ، او برنسس !! .

على ان فتاتنا ، والحق يقال ، لم تبطرها النعمة التي اسبغت عليها ، فلم تشأ ان تكون مذبح الثروات والالقاب ، ولم ترد ان يختصم من حولها النبلاء العاطلون المأفونون ، شأن اترابها من فتيات الهوى اللائي يسلكن سبيلها ، فلم تثر من اجلها مبارزة ، ولم تبدد ثروة في القمار بين يديها . انما كانت فتاة هوى « صاحبة مزاج » كما يقال ، فلم تكن تهوى الا طبقة « الشباب الزاهر » كما ينعتونه : اولئك الذين يمتازون بروعة الشباب وغيدان الحداثة وفتنة الاناقة ، اكثر مما يمتازون بكثرة اللعب بالاوراق واقتناء العربات الفاخرة والجياد المطهمة . فلا عجب بعد ان نجد في محيطها طائفة بين اهل الفن الذي تؤثرهم على اولئك النبلاء الطائحين الفارغين : من امثال الكساندر ديما الابن ، وفرانتس ليست ، الموسيقار العظيم .

فالفتاة لم تكن في الواقع خالية من المواهب الممتازة ، فضلاً عن جمالها . فقد كانت ذات حركات تنبىء عن نبالة نفس وشرف محتد ، وكان في عيونها براءة ، وفي بسماتها جد رقيق ، وكان لاشاراتها ما يكشف عن تأثير بالغ في نفوس من يرونها دون ان يعرفوها . ولهذا فان اسكندر ديما الاب قال لابنه وهو يشاركه وجدانه : « لك الحق في العطف عليها ، فانها فوق مستوى مهنتها بكثير » يعني مهنة الخليلة ذات الاصل الوضيع .

وحديثها لم يكن يخلو من عمق : اولاً بتأثير عهدها الغابر في الحي اللاتيني ، وثانياً بتأثير العالم الجديد الذي ألفت الآن غشيانه : عالم المسارح والعرض الاول لكل رواية جيدة ، وعالم الموسيقى وقد كان يعمره في ذلك الحين في باريس فرانتس ليست Franz Liszt بألحانه السماوية الرائعة ذات الحنان والرقة مع العمق والجلال فتراها اذا ما تحدثت مع اهل الفن هؤلاء ، تم حديثها عن حسن فهم وسلامة ذوق مع ترفع مشوب بالاغراء . لهذا لم يكن غريباً ان يولع بها اولئك الفنانون ، وان يكون الكساندر ديما الابن من اولئك العشاق ، فخلدها في تلك القصة الخالدة « غادة الكاميليا » .

ولعل أبلغ آية على سمو نفسها انها كانت دائماً تظهر ملالها من عباد جمالها ، وتنشد الوحدة والصمت ، وتعاف العبارات الممجوجة التي كانت تصم آذانها كل يوم : « انت رائعة ، انا أحبك ، غرامي كاد يقتلني ! » .

أجل لم تكن فنانة بأي معنى من المعاني ، انما كانت بنت هوى فحسب ، تتقاضى ثمناً فادحاً لنظراتها ورفقتها وتعلقها . لكنها مع هذا لا تخلو من السمو النفسي ، والا لما تعلق بها اولئك الفنانون .

اما قصتها مع ديما الابن نفسه فقليلة القيمة : اذ لا تتجاوز تعارفاً بسيطاً أعلن فيه الفتى المتلاف الواله غرامه العنيف ، وردت هي عليه — وقد عرفت الآلاف من امثال هذه العبارات الجوفاء ، — بكلمات فيها مرارة كأس الحياة ، تطلب فيها ان تكون بكامل حريتها في صلتها به . وما كان لديما ان يفعل غير هذا ، فلم يكن لديه من المال غير ديون باهظة . لهذا سرعان ما انتهت قصة غرامها ، برغم ما مر به من شكوك ومتاعب وعذاب ، انتهت ببطاقة ارسلها اليها يقول فيها : « عزيزتي ماري ! لست من الغنى بحيث اقدر على حبك كما أود ، ولا من الفقر كما تحبينني كما تهوين . الا فلننس نحن الاثنان معاً : انت ، اسماً لا بد انه لا يكاد يعنيك في شيء ، وانا :

عبقرية الجمال الاخلاقي

بقلم عبد اللطيف شرارة

لم يبق في ذهني من ذلك الحديث ما يعينني على اعادته او نقله برمته، وانما اذكر بجلاء كيف احتدم الجدال واضطربت الافكار وزاغت الأبصار ولعلعت الخواطر بالهمس الهازئ، واللغو الساخر حين القيت بكلمتي «جمال اخلاقي» في مجرى الحديث.

كان ذلك في جمع من السيدات والاوانس.

ولم يكن ليخطر لي ببال ان أثير ما اثرت من هزء وسخرية بمجرد ان قلت « جمال اخلاقي » لا لأني بعيد عن الناس فلا ادرك خصائصهم، ولا لأني أخبط في معاشرتهم فلا اتحامى انتقاداتهم وملاحظاتهم، ولا لأني منصرف الى نواح مثالية تحجبني عن واقعهم، لا لشيء من هذه الاحتمالات الخاطئة ابداً، بل لأن هذا الجيل اصبح غريباً عن القوى المعنوية، بعيداً عن اصوله الثقافية غارقاً الى اذنيه في مشاكل تافهة في جوهرها، هامة في قيمتها الحيوية كالمسكن والملبس والاثاث والغذاء وما اشبه. فهو حيال هذه المشاكل المادية المباشرة ضائع عن قضايا الحياة الكبرى، غائب عن الحقائق العليا، فلا يلتمسها، ولا يجد في وقته واعماله متسعاً لتلمسها.

وكانت احدى نتائج هذا الوضع — وله نتائج كثيرة — ان فقد الناس كل احساس بالجمال الاخلاقي، ثم كفروا به وبأصحابه وبالعاملين له كفراناً عظيماً!..

بيد انك اذا فحصت الامور وأوغلت في حنايا النفوس ترتاد قراراتها، وتبحث عن اطايبها، تجد ان هذا الجيل ما زال في باطنه مؤمناً بالقيم الاخلاقية على الرغم من ظاهر كفره، ولعرفت ان ما ينقصه شيء آخر غير الايمان وغير المبادئ. ينقصه « المثل الحي» لما يحبه ويشوقه ويرضى عنه ويطمئن اليه من المعاني الاخلاقية، والصور والحالات الروحية، اي انه، بتعبير آخر، ما زال يؤمن بالصدق ولكنه لا يجد الصادق، ويؤمن بالتضحية ولكنه لا يجد من يضحي، ويؤمن بالنزاهة ولكنه عبثاً يبحث عن نزيه فيمن حوله.

ومذ كانت الحياة وحدة لا يصح ولا يجوز تجزئتها فقد سرت عدوى « الاستهتار » من الكبار الى الصغار، ومن العارفين الى

سعادة يستحيل عليّ الظفر بها. ومن نافلة القول ان اصف لك كم انا حزين، لانك تعرفين الى اي مدى انا اهواك. وداعاً اذن. وان لك من القلب ما يسمح لك بفهم العلة في رسالتي هذه، ومن العقل ما يجعلك تغتفرين لي. آلاف الذكريات. !»

بيد ان هذه الحياة الزاهية التي أشرفت مارية على أوجها كان لا بد ان تدفع كفارتها من هيكلها الذي طالما ارهقته. لكنها قبل ان تدفع الكفارة الاخيرة رامت ان تستعيد نفسها وتظفر بالخلاص فتزوجت من الكونت ادوار برجو Edouard Perregaux حفيد مدير بنك فرنسا في ذلك الحين، وتم الزواج في لندرة في ٢١ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٦ خوفاً من أعين الرقباء، حتى ظل سراً مكتوماً، ونقول تم الزواج، ونقصد اسماً، لا فعلاً، فما لبث هذا الزوج في سن السابعة والعشرين ان هجر زوجه حتى قبيل وفاتها بلحظات، وان استغلت اسمه وسجلته على شئونها الخاصة. ومن ثم عادت بزواجها الخائب الى باريس، فاستأنفت او شاءت ان تستأنف حياتها الصاخبة لكن لات ساعة حياة! لقد عبث السل برئتيها، وتبدى على شكل سعال جاف مصحوب بحمى، فبقي منها آنذاك جسم شاحب ذاب بياضه الناصع وتبدى النحول في وجهها، وعلت عيونها السود قتامة كالحة — حاولت ان تخفي شيئاً منها بأرديتها الزاهية وزينتها الفخمة، لكن عبثاً! وعبثاً كذلك أن راحت ترحل الى بروكسل والى مدن المياه المعدنية مثل إمز، فقد حم القضاء، ولفظت انفاسها الاخيرة في بيتها رقم ١١ بشارع المادلين، في يوم ٣ شباط سنة ١٨٤٧ وهي في الثالثة والعشرين.

تلك حياة هذه الفتاة الغريبة التي ألهمت ديما الابن قصته الخالدة.

وقد دلفت الى قبرها مليئاً بهذه الذكريات، فوجدته قبراً ناصعاً من المرمر الشفاف، ومن فوقه أواني زهر يانع وتاج من الزهر الرخامي وكل ما فيه يشعر بأنه لا يزال حياً تسهر عليه عيون المعجبين. والعجيب انه لم يكن بين هذه الازهار زهرة الكاميليا التي نسب ديما اليها اعجابها وتعلقها بها. ولعل السبب في هذه النضارة والحياة اللتين شاهدتهما عند هذا القبر أنه قد احتفل هذا العام بمرور مائة عام على وفاتها فحج اليها المعجبون، وتركوا عندها ذكرياتهم الخاصة التي تشارك احوالها.

ولا أحسبك، أي سلواي، ستسألينني العلة في اطالتي الحديث عنها. فأنت ادرى مني بها!!

باريس

عبد الرحمن بدوي

الجاهلين ، ومن الخاصة الى العامة ، واخيراً من الرجال الى النساء . ثم شمل هذه الطبقات والانواع جو من التفاعل ادى الى هذه الازمة الاخلاقية التي يتقزز الجميع من بشاعتها ويرعبهم هول قبحها .

فاذا اعدت النظر الآن من جديد في ازمة الاخلاق هذه التي تتخبط بها مجتمعاتنا ، واعتبرتها حدثاً مستقلاً عن ملابساتها السياسية والاقتصادية ، كي تجد لها حلاً معقولاً يستأصل شأفتها استئصالاً ويمحو بعد ذلك آثارها لما وجدت وسيلة الى هذه الغاية الا في القانون الاخلاقي نفسه ، فيكون العلاج من نوع الداء ، ويكون الشفاء قريب التحقق .

ذلك ان الاخلاق تتمتع بميزة حبيبة الى النفوس ، قريبة من القلوب ، شائقة ممتعة ، هي عين الميزة التي تنشدها في المرأة ، وتنشدها المرأة في نفسها ، ألا وهي « الجمال » فكما اننا نعنى بالمرأة من حيث طلعتها وقسمات وجهها وشعرها وعينيها وقامتها لنكون في ذهننا صورة عن جمالها ، فان علينا ان نعنى بالناحية الاخلاقية في اي شخصية نعرض لها وتعرض لنا ، لتسبح روحنا في فضاء من المفاتن العلوية والمباهج السحرية التي يطل عليها القلب اطلالاً خاصاً لا يشاركه به عقل ولا فكر ، وتستمتع بها النفس استمتاعاً خاصاً لا تعرفه العين ولا الأذن ، ولا تدركه حاسة من حواس البدن .

تلك المفاتن والمباهج هي التي اوحت الى « كنط » فيلسوف العصور المتأخرة ذلك القول الذي حفروه على قبره : « شيئان ما انفكا يثيران في نفسي الاعجاب والاحترام : السماء ذات النجوم من فوقي ، والقانون الاخلاقي في داخلي » .

اي شيء ترى يشتمل عليه ذلك القانون حتى يثير مثل هذا الاعجاب ، ويحملنا قسراً على الاحترام ؟ ؟ .

اود ان اعود بالقارىء الى ذكر المرأة ، كما اود ان يستعيد القارىء نفسه ذكرى امرأة عرفها وأعجب بجمالها الخارجي ، ثم يقف عند اعجابه هذا ليرده الى مصادره ، وليسلط عليه اشعة فكره برهة من الزمن ، بعد ان تحول الى ذكرى ، اي الى « مادة » روحية يستطيع ان يُعمل فيها البحث :

ألا يجد الآن ان اعجابه ذلك لم يكن ليقف عند « المظهر » بل كان وراءه تصورات لمعان اخلاقية عالية او تخيل لاشياء روحية يتمناها ويحلم بها ؟؟ الا يجد ان ذلك المظهر كان يوحي اليه بأفكار خاصة اذا ارتفعت نما اعجابه وازداد ، واذا انحطت تحول الاعجاب الى اشمئزاز ؟ .

— ذاك ما يجري في الواقع لكل بشري ، لأن الاعجاب روحي بطبيعته ، روحي بنتائجه ، فلا يمكن ان يكون اذا لم يكن ثمة روح توجيه ، وروح ثانية تتلقاه ، حقيقة او تصوراً ؛ ولذا ، فاننا لا نعشق المرأة كامرأة ، اي كقامة تمتاز بعدد معين من السنتيمترات وكشعر يتميز بوضع من الاوضاع ، وكوجه يظهر بلون من الالوان ، ووو . . . انما نعشق تلك « الايحاءات » التي تنبعث من شخصيتها خاصة في شخصيتنا خاصة ! ! .

هنا ، عند هذه الايحاءات التي يتلقاها المرء بغير وعي منه في اغلب الاحيان وبغموض في كثير من الحالات ، يتميز الموقف الاخلاقي الذي ينبغي لكل انسان ، رجلاً كان او امرأة ، ان يراقبه بدقة ليستطيع ان يقفه كما يفرض عليه خيره وخير الانسانية ، فعليه يتعلق مصيره ، وبالتالي مصير الانسانية .

هذا هو الموقف الذي يتحكم فيه القانون الاخلاقي تحكماً تاماً ، فاذا كذب الانسان فيه على نفسه ، او ترك الغموض يسيطر على ذهنه ، او انساق مع عاطفة غير معقولة ، او حسب ان بامكانه اخفاء الحقيقة التي لا بد من ان تنجلي ولو بعد حين — اذا فعل شيئاً من ذلك ، اي تمرد على القانون الاخلاقي ولم يأبه الا لاعتبارات آنية ومنافع شخصية افضى به تمرده هذا الى المأساة .

تتكون هذه المأساة تدريجياً في الخفاء ، ولا تتضح الا عند تكاملها ، حتى اذا بلغت نهايتها وانفجرت بالكارثة التي تحملها ، يعرف صاحبها فجأة انه كان مسؤولا ، والويل له اذا استمر في طيشه ، وحاول ان يلقي بالتبعة عن عاتقه ليتهم الحظ ، او القدر ، او الظروف ، او الناس ، او المحيط . . . ثم طوبى له اذا تراجع عن خطأه ، واستوضح ماضيه ما خفيه منه ، واعاد الكرة في البناء من جديد على اساس اخلاقي جديد .

وهذا اعظم ما يشتمل عليه القانون الاخلاقي وهو انه :

١ً — لا يستخدم القوة بل يترك الانسان حراً يستعمل حريته بحرية .

٢ً — الالم وسيلته الاولى والاخيرة والوحيدة الى افهام الاحمق وتعليم الجاهل .

٣ً — يكافىء حسن استعمال المعرفة التي تنشأ عن الالم باحلال السعادة والطمأنينة محل الالم . فهو بذلك يشبه دائرة مفتوحة يبتدىء طرفها الاول بالحرية ، وينتهي طرفها الثاني بالسعادة وعلى مدارها يطوف الالم والمعرفة في حركة متعاقبة .

أرأيت الى عظمة هذا القانون ، وروعة ما ينطوي عليه ؟ ؟ .

غير ان هذه الروعة لا تظهر معالمها زاهية الا في صور فنية مستقاة من اعمق التجارب الروحية الحية التي مر بها عباقرة الشعر

والموسيقى والتصوير والنحت . . . هناك يتجلى الوجدان على اطهر واصفى ما عسى ان يكون في انسان ، وهناك تبصر أثر الجمال الاخلاقي على اعنف واقسى وأمرّ ما يكون التأثر والتأثير .

وقد يكون في سيرة شكسبير ، ذلك الشاعر الذي اكبرت الدنيا شاعريته ، مثل واضح من التجارب التي اشرنا اليها :

هذا رجل – اي شكسبير – لا يعلم الا الله عدد النساء اللواتي الهمنه واحببن ، فما عرفت الآداب العالمية شاعراً تكثر لديه الوجوه النسائية وتتنوع ، بمقدار ما تكثر وتتنوع عنده ، ولكن الظاهر من مقطعاته الشعرية Sonnets لا من تمثيلياته ، انه تعلق اكثر ما تعلق بامرأة توفرت لها كل الصفات «المزعجة» التي يراها الناس مزعجة ، اذ كانت كبيرة في السن ، دميمة الطلعة ، شرسة التصرف .

احب شكسبير اذن تلك السيدة السمراء المسنة ، ولا نعلم ، ولا هو يعلم ، ولا باستطاعة احد ان يعلم لِمَ احبها وكيف أحبها ، او على اي معنى من المعاني المحبوبة ارتكز اعجابه بها .

هاك ما يخاطبها به في احدى مقطوعاته : « ليست عيناي اللتان تحبانك فهما تشهدان فيك كثيراً من العيوب ، وانما هو قلبي ، الذي يعبد فيكِ ما يحتقره ذهني ، على الرغم من فطنته . كذلك اذناي فانهما لم تؤخذا ابداً بنبرات صوتك ، ويداي لم تسحرهما نعومة إهابكِ . ثم لا الذوق ولا الشم ينشدان في جسمك مأدبة لذيذة . غير ان فكري وحواسي لا تستطيع ان تمنع قلبي المسكين عن ان يحبك ، عن ان يغدو عبداً تعيساً لقلبك الصلف المتكبر » ! .

قلت منذ لحظة ان احداً لا يعلم سر هذه الظاهرة في حياة شكسبير ، ويقيني ان شكسبير في حبه لهذه المرأة كان يستجيب لاغراء خاص فريد في نوعه ، غريب في بابه ، يصح ان نقول فيه انه « اغراء اخلاقي » بمعنى ان فاتنته كانت تملك من المعاني الاخلاقية المتناقضة ما ينشده شاعر كشكسبير في المرأة : من وداعة الى سخاء الى تحمل الى فطنة الى صفاء الى طهر ، تتشكل احياناً في قوالب الشراسة والكبرياء والعنف والغلو في الدلال فاذا خفي جوهرها المحبوب على الناس فلا يخفى على شكسبير وامثاله .

وهكذا . . يكون الجمال الاخلاقي وسيلة اغراء عند المرأة ، شأنه في ذلك شأن الجمال الجسمي ، ولكن الاول يحتاج الى حس اخلاقي مرهف نادر ، ليراه المرء ويستمتع به ، بينا تجد الثاني يعرض نفسه ، وينكشف من تلقاء مظهره للأنظار ، فلا بدع ان يستهوي العامة ويملك عليها اقطار اعجابها ويصرفها عن الروعة في جمال الخلق .

ولكن الجمال الاخلاقي لا يغري بالحب فحسب ، وانما يستهوي النفوس الكبيرة بما يأتلق فيه من جلال البطولة وصور الخلود ، ثم يفيض فيها ينابيع الفكر والفن ، فتتدفق بالعذب السائغ من الانغام ، والنبيل السامي من الافكار والقيم الرفيع من الآداب ، والغريب الرائع من الاخيلة ، واذا هي تحيا حياتها بعمق وحرارة ، وتحلق في سماوات لا يعرف عنها سواد الناس شيئاً .

ذاك هو اثر الجمال الاخلاقي في حيوات الذين يعرفون ويتطلعون اليه ، وما هو لعمري بالاثر الذي يستغنى عنه ! فاذا افتقدته في بيئة ما ولم تجده بها ، فما لك الا ان تقوم بتأبين اهلها ورثائهم ، لانهم يعدون انفسهم احياء ، وما هم بأحياء الا كما يكون الحذاء اللماع حيا . . .

وهنا تتأكد عبقرية الجمال الاخلاقي ، وتظهر في اروع صورها وابدعها ، اي حين نأخذه مقياساً لفهم الافراد ، ودراسة المجتمعات ، وبناء الحياة الفردية والعامة ، ثم ننشده في كل حادث نمر به ، ونحققه في كل عمل نعمله ، ونحسب حسابه في كل كلمة نقولها .

اذكر اني تحدثت مرة الى فتاة يرتفع مستوى جمالها الى القمة المرموقة ، وقد عرف عنها أنها رفضت كل من يتقدم خاطباً يدها ، وفي خاطبيها من توفرت لديه المؤهلات المعروفة المطلوبة ، حتى قبلت اخيراً بشاب كان قبولها اياه موضع غرابة واستهجان ، على الاخص من ناحية دمامته ، فسألتها عن وجهة نظرها في هذا الاختيار ، فقالت وفي صوتها عزم الواثق من رأيه ، المؤمن بنفسه : « أرني في الحياة كلها امرأة تعاشر زوجها بصغر انفه او كبره ، وتحيا بطول قامته او قصرها ، وتسعد بوفرة شعره او صلعه ، ان المرأة التي تفكر كالرجل بالجمال والثروة في شريك حياتها شقية سلفاً . شقية ولو آثرت العزوبة . شقية ولو تزوجت . لان هذا الاسلوب في التفكير هو عين الشقاء ! » .

والواقع ان المرأة ، على وجه الاجمال ، تنشد الجمال الاخلاقي في الحياة ، وهي لا تدركه الا بالحس ، او الحدس ، ولذا تعمل على ايجاد هذه الناحية في الارض ، هادئة صامتة ، لان من طبيعة البناء الصمت والهدوء .

الجمال الاخلاقي هو الذي يبني وينشيء ويرفع ويسعد ، وكل ما حوله من ضروب الجمال المبثوثة في مظاهر الحضارة ، لا في جوهرها ، تذل وتميت وتهدم . فهل يسمع الرجال ؟؟ وهل يتأملون ما في حيواتهم من مآس لا يعرفونها ؟ ؟ .

عبد اللطيف شرارة

الضفيرة الذهبية

بقلم جي دي موباسان

☆

كانت جدران غرفته الصغيرة المظلمة بيضاء عارية، لا يدخلها النور الا من كوة صغيرة في اعلى الحائط . وعلى كرسي خشبي جلس المجنون البائس ذو البنية الضعيفة والوجه الشاحب والشعر الابيض ، يحدجنا بنظراته الحادة التي توحي لمن يراه بأن فكرةً ما تستحوذ عليه، وان هذه الفكرة نفسها لاتلبث ان تنخر في نفسه حتى تكاد تسلبه حياته .

قال لي طبيبه ذات مرة : « ان له نوبات فظيعة من الجنون الغرامي الشديد ، فهو من اغرب المجانين الذين عاينتهم . وان المذكرات التي كتبها لتشخص بدقة داءه العقلي ، وتطلعك اذا ما قرأتها على حماقته الغريبة » .

وتبعت الطبيب الى عيادته في المستشفى ، فناولني مذكرات ذلك المجنون المسكين، وقال لي: «اقرأها، وصارحني برأيك فيها» .

فتناولت المذكرات وقرأت فيها ما يلي :

لقد عشت بهدوء، وطمأنينة حتى السنة الرابعة والثلاثين من عمري دون ان أعلق قط في شراك الحب. وكانت الحياة تبدو لي في ذلك الحين بسيطة وجميلة . ولقد كنت غنياً انفق عن سعة، فأبتاع كل ما تشتهيه نفسي. وكان من عادتي ان استفيق في الصباح واقوم بما يقتضيني اليوم من الاعمال ، وفي المساء آوي الى فراشي سعيداً موفوراً ، امنّي النفس بالمستقبل الباسم الذي ينتظرني.

لقد كانت خليلاتي كثيرات ، غير انهن لم يُشعرنني قط بجنون العاطفة او بحرارة الحب العميق . والغريب انني كنت أستطيب العيش على تلك الحال . ولكن ما من شك في ان حياة الحب ألذّ من ذلك وامتع ، لانها تشعر اصحابها بالسعادة العظيمة ، غير ان سعادتهم تلك لا تقاس بسعادتي؛ لانني عرفت الحب بطريقة غريبة جداً .

فلقد كانت لي رغبة قوية في شراء القطع الأثرية القديمة التي كثيراً ما كنت افكر في الايدي النحيفة التي لمستها ، وفي العيون التي وقعت عليها ، وفي القلوب التي هفت اليها . . . وكثيراً ما كنت اقضي جزءاً كبيراً من وقتي ، وانا انظر الى ساعة صغيرة انيقة ترجع في تاريخها الى القرن الماضي، ومنذ ذلك الحين لم تكف عن سيرها . ترى ، من الفتاة الاولى التي شغفت بها فابتاعتها واحتفظت بها بجانب قلبها الذي كانت خفقاته تواكب خفقات تلك الساعة الجميلة ؟! ترى ، يد من امسكت بها بخفة وادارتها ؟! عينا من تفرستا في وجهها لمعرفة قرب الموعد مع احد الأحبة ؟! .

ولكم كان يلج بي الشوق لأعرف الفتاة التي عاشت في الزمن الماضي ، وملكت تلك الجوهرة الثمينة النادرة المثال ! انني احب فتيات الماضي ، وسأظل على مدى الاجيال احب جميع الذين عرف الحب طريقه الى قلوبهم ! .

ان قصص الحب في الماضي لتفعم قلبي بالاسف! فطالما بكيت الليالي الطوال حينما كنت اتصور فتيات الماضي الجميلات



ترجمها بتصرف ماجد فرحان سعيد

وهن يطوقن احبتهن ويغمرنهن بأحر القبلات ! ترى، ايستطعن ذلك الآن وهنّ في عالم الاموات ؟ اوَ لم يكن اولى بالجمال والشباب والابتسامات والآمال لو انها خالدة ؟ غير ان القبلات بالرغم من ذلك خالدة على مدى الازمان ! فهي ترفرف من شفة الى شفة، ومن جيل الى جيل، ومن عصر الى عصر ! وما على الانسان الا ان يجمعها وينقلها ثم يموت ! .

اجل ان الماضي يلذ لي، ولكن الحاضر يخيفني لانه يخفي لي الموت من ورائه ليفاجئني به ! ولكم يلذ لي لو كان في استطاعتي ايقاف عجلة الزمن ! ولكن ما العمل ؟ ! فسرعان ما تمرّ الساعات فتختلس تدريجياً اجزاء صغيرة من عمري، وما تلبث اخيراً ان تسلمني الى الفناء ! .

ترى، أأنا في حاجة لمن يرأف بي ما دمت قد وجدت التي كنت افتش عنها، وتذوقت بواسطتها لذّة المسرات السماوية ؟! كلا والف مرة كلا! في صباح يوم بهيج، كنت اتجول في شوارع باريس سعيداً مسروراً، وبينما انا استعرض الاشياء من واجهات الحوانيت، اذا بي اقف دهشاً امام خزانة ايطالية جميلة ترجع في عهدها الى القرن السابع عشر . لقد كانت بديعة الصنع نادرة المثال ! ومشيت في طريقي . ولكن جمال تلك الخزانة لم يفارق مخيلتي، بل اخذ يحفزني على الرجوع اليها، فرجعت، ووقفت امامها مرة ثانية، والرغبة العنيفة تلح عليّ باقتنائها . لقد استحوذ عليّ جمالها السحري العجيب المنبعث من شكلها ولونها، حتى اصبت بحمى الرغبة في شرائها، تلك الحمى التي كانت اول ما كانت خفيفة، الا انها ما لبثت ان ازدادت حتى كادت تتحول عذاباً عنيفاً، يجعل البائع يقرأ في عيني سر الرغبة المضطرمة في نفسي .

اشتريت الخزانة، ونقلتها الى البيت، حيث وضعتها في غرفة النوم .

ولكم تهتاجني ذكرى الساعات العذبة التي كنت اقضيها مع خزانتي !

وبقيت مدة اسبوع وانا احب خزانتي لدرجة العبادة . وفي إحدى الليالي، بينما كنت اتحسس احد الواحها، راودني الفكر بأن لها سراً غريباً ! وبدأ قلبي بالخفقان، وقضيت تلك الليلة مؤرقاً، احاول استجلاء ذلك السر الغامض ! وفي احد الايام ادخلت السكين في شق من الخشب، واذا باللوح ينزلق الى الخلف، وارى ضفيرة وهاجة من الشعر الذهبي العجيب، جاثية على قطعة من المخمل الاسود . فتملكتني الحيرة والدهشة، وسرت فيّ رجفة قوية .

وتضوّع من الضفيرة السحرية نفح عطر يكاد لا يدرك لقدم عهده . ورفعت الضفيرة من مكانها باعتناء فائق كما لو كانت شيئاً مقدساً . لقد كانت ملتفة كالحية، متألقة كالنجم المذنّب ! .

وكادت عاطفة غريبة تخنقني، اذ حرت في امر هذه الضفيرة . وبدأت اسأل نفسي : — كيف ومتى خبئت في الدرج ؟ وما المغامرة او الرواية التي تتعلق بها ؟ من الذي قصها ؟ ترى، أكان عاشقاً عندما فارق حبيبته الى الابد؟ ام زوجاً دفعته الى ذلك روح الانتقام ؟ ام كانت صاحبتها بالذات، وهي في غمرة من اليأس، او عندما ازمعت على الانتماء لاحدى الرهبنات، فقذفت بذلك الكنز في الدرج ليكون تذكاراً منها للعالم الدنيوي؟ ام كانت فتاة جميلة اهدتها الى حبيبها وهي على فراش الموت، لتكون له عزاء وذكرى بعد موتها ؟ .

أليس عجيباً ان لا يتسرب الفساد الى هذه الضفيرة مع انه اتى على الجسم الذي نبتت عليه برمّته ؟ ! .

وضممت الضفيرة الى جسدي، فشعرت بملامسة جسم ميت ! واستبد بي الهم حتى كاد يسلمني الى البكاء ! فعدت اقلبها بين يدي، وانا اشعر كأن شيئاً من روح صاحبتها يكمن بين انسجتها! ثم طرحتها بعناية على قطعة المخمل البالية، واغلقت الدرج، وخرجت للنزهة كي اخلو بأحلامي وتأملاتي .

وسرت وقتاً طويلاً يغمرني الحزن والعاطفة، تلك العاطفة التي يشعر بها الانسان بعد قبلة من حبيبته . وصرت اشعر ايضاً كأنما عشت في الزمن الماضي، وكأن لي معرفة اكيدة بصاحبة الضفيرة .

ورجعت الى البيت، فألحت عليّ رغبة حافزة على النظر اليها فأخرجتها من الدرج، وفي الحال سرت في هيكلي هزة عنيفة .

وبقيت مدة ايام وانا على هذه الحال، والضفيرة لا تغيب عن خاطري، اذ كان لا بد لي دائماً اثناء وجودي في البيت من لمسها والنظر اليها . وكنت اشعر عندما اتقدم من الدرج بنفس العاطفة التي اشعر بها كما لو كنت اداف الى مخدع حبيبتي . فكثيراً ما كنت اغلق عليّ باب الغرفة لاخلو بضفيرتي الحبيبة، فأقبلها، وادفن وجهي بين طياتها، فتغرق فيها عيناي وشفتاي، ويأتي اليّ ضوء النهار من بين ثناياها الوضاءة .

وانقضى شهراً او شهران وهي لا تزال تبهرني وتشعرني بالسعادة والعذاب في نفس الوقت ! . .

وانتظرت ... انتظرت من ؟ لست ادري ! ... كلا، لقد انتظرتها ! ... واستفقت في احدى الليالي، وكأني شعور بوجودها

معي في الغرفة . ولما لم استطع النوم دون رؤيتها ، نهضت من فراشي لأستجلي محاسنها ، وشعرت اذ ذاك بأنها صارت انعم وأكثر حيوية من ذي قبل . لقد جعلتني القبلات التي غمرتها بها في غيبوبة من النشوة ، ولذا حملتها معي الى الفراش ، والصقت بها شفتي ، فساد الصمت لحظات قليلة ، تبعتها وسوسات القبل الزاخرة بالحب العارم .

أحببتها ! نعم احببتها ، حتى انني ما عدت اقوى على العيش بدونها ، ولا الابتعاد عنها ولو ساعة واحدة . سرت معها في الشوارع كما لو كانت زوجتي ، ورافقتها الى الملاهي كما لو كانت عشيقتي !..

ولكنهم رأوها .. لقد عرفوا سرّها .. لقد سلبوني إياها . وزجّوني في السجن من اجلها كالأثيم !... لقد أقصوها عني ، وأقصوني عنها .. آه ! يا لتعاستي !...» .

وهكذا انتهت المذكرات ، واذ ذاك نظرت الى الطبيب نظرات قليلة مفعمة بالحيرة والدهشة . واذا بصرخة مرعبة تدوّي في ارجاء المستشفى . فعلمت انها صرخة المجنون البائس . واستبدت بي الشفقة الممزوجة بالدهشة والخوف ، وتمتمت قائلاً : « ولكن . هل كانت الضفيرة موجودة في الحقيقة ، ام كانت مجرد خيال ألمّ بالمسكين ، فقاده الى الجنون ؟ » .

فأنتصب الطبيب ، واخرج من احدى الخزائن ضفيرة شعر شقراء ، وقذف بها اليّ ، فلما وقعت بين يديّ ، اخذت بنعومتها السحرية ، واعترتني في الحال رجفة قوية . فهز الطبيب اذ ذاك كتفيه وقال :

« في الحقيقة ، ان خيال الانسان ليتّسع لكل شيء ! » .

القدس — ماجد فرحان سعيد

وداعـــا يا صـــاحبي

حين حملت مذياعي لتسليمه يوم امرت السلطة بذلك خلال الحرب

بقلم خليل هنداوي

☆

بقولونه

انهم سينتزعونك غداً من بين يدي انتزاعاً لا خيرة لي فيه . وانني سأحملك على منكبي في نعشك المقفل — وانت حيٌّ — لأواريك حياً في المثوى الاخير . وهناك سألقى رفاقاً كثيرين مثلي يحملون رفاقهم ليدفنوهم بأيديهم في اللاحد العميق !.

انك ستمر بهم قبل ان تهوي في لحدك ، فيشقون جلدك ، ويبحثون عن قلبك ، ورئتيك او عروقك . لأنهم يريدونك كاملاً حياً ، قلبك خفاق ، وعرقك ، حتى اذا نقص منك شيء اعادوك ، وطلبوا ان تعود بكل حياتك غير منقوصة ، وعروقك غير مرخاة .

امـا ذنبك عندهم فهو كبير لا يغفر ، وتأثيرك لا يُطوى . لانك فاضح الأسرار ، باث للشكاوى . تردد ما تسمع ولو كنت تذيع انحلال شعب او هلاك امة . وتحمل الى المسامع انباء العالم مهما نأى مصدرها ، كأنك مولع بالاسرار ، ونشر الاخبار . وقد تجمع المدّعين على صعيد واحد : هذا يقول بشيء ، وذاك يصرفه عن شيء . وانت خلال ذلك امين لا تحب المفترين .

في صوتك نذير وبشير . ينعي الاول الآمال ، وربما هتف بالزوال . ويحمل الآخر البشرى لأفئدة ترابلت من الصبر ، وانفس تهش لكلمة القدر .

لكم قلت لك في الليالي : اعفني من هذه الانباء ! وانت تغريني بتقليب كرة الارض بين اصابعي لاسمع وسوستها وهي تدور ، واصغي الى تمتمها وهي تنذر بالويل والثبور .

لكم قلت لك : اطو عني هذه الصفحة . وانت تحمل لي الانسانية ، وقد عثرت بشهوتها ، وتدثرت بوحشيتها . تسترق اذني منك أخبارها ، وترهق ظهري بأثقالها . وأنت – خلال ذلك – كالخلي ! لا ادري ، اتنقل اخبارها باكياً ، أم خالياً ، ام ساخراً . ويا ويل الخلي من الشجي !.

تمر عينك على الملاحم فتضحك ، وتهتز امواجك على اشلاء البشر فتسخر . وينفضك الاثير من الاقصى الى الاقصى ، فتحمل ما ترى ، وتقص ما تسمع ! .

يا صاحبي ! انهم لا يرحبون بك لانك لاتكتم اسرارهم . ولا تغض الطرف عن حالاتهم . وهم يريدون صاحباً اغمض عينيه ، وأصم اذنيه ، وأخرس فمه ! اذا سمع لا يروي ، واذا رأى لا ينقل ، وابن حالك ايها الفضاح الوقاح ! الناقل للسر في الغدو والرواح ؟.

انهم سيصيبون غداً قلبك الخافق ، وبصرك النافذ ، ولسانك الذي لا يكل . حتى اذا حالوا بينك وبين الارض والسماء اصبحت في جدث مظلم تتراقص الظلمة حوله ، بعد ان كانت امواجك تلتف بكل ما ابدعت الطبيعة من اشعة . . . وهناك يخرس لسانك ، ويهمد فؤادك ، وتصبح صاحباً لهم كتوماً ، لا نموماً .

يا صاحبي ! كم حملتني في الليالي القاتمة الى عوالم تفتحها لعينيَّ في الآفاق البعيدة ، وتحمل اليَّ لغة اصحابها ومرحهم وموسيقاهم . فأنتقل من عالم الى عالم وأنا خفيف الجناح ، أنقر من نقبة الطائر ، واسير لاتسع مسراي الآفاق . واغدو لا تقف مداي الابعاد !.

ولكم وقفت عند « سمفونية » رقيقة ، تحمل انفاس الروح في هوى ملح ، غير مبرح ، ينفث صاحبها الشكوى بالنجوى . . . وكأنه يدرك ان الحياة كلها نغمة خافتة هائمة تنسل مع الليل ، حتى اذا غمر قلبي هذا الافق المتراخي نقلتني الى افق موسيقي آخر عجت آلاته ، وتناسقت اصواته ، فهي تصور الحياة بكل ما تزخر من ألم ويأس ، وحب وكره ، وشك وايمان . فمن لحن يختلج اختلاجة المحتضر ، ومن لحن يثب وثبة السيل المنحدر ، ومن لحن تنسجم فيه هذه الاصوات النافرة كلها ، كأنه الشلال الهاوي في الاعماق بين الصخور ، لا تحمل الاعماق منه الا انينه الملتئم ، وهويه المنسجم ! .

ليتك وقفت بي يا صاحبي عند هذه الالحان ، ولم تثر بغيرها هاجسي المضطرب ، اذاً لما قدمت لي من الانسانية الا وجهها الرفيع المتسامي الذي يمثل عظمتها ورفعتها ، ولكنك رحت تزج لي هذه الالحان ، بما يهيج الاشجان . فما رويت الا لحناً يرقص على الاشلاء ، وما جئت الا بحديث نضحته الدماء .

والآن ، يا صاحبي ! لا ينفعني الاسترسال في العتب ، وليس امامنا الا ليلة واحدة ، كيف تريد ان نطويها ؟ وانت ؟ أن فراقنا فراق طويل لا لقاء بعده ! .

اتريد ان تبقى في زاويتك ، هذه الليلة ، صامتاً الا تنطق ولا تجيب ، وانا مطبق جفنيَّ ، واجم عليك . ان المعدم الذي يحس انه لم يبق له من حياته الا ليلة واحدة ، ليأبى ان يخنق ليلة ، ويضيع فرصة ، فهو يوقظ الآمال من مراقدها ويريد ان يقبض على الحياة كلها بكلتا يديه في ليلة واحدة . فلمَ الوجوم ولمَ الشهوم ؟

لننطلق الليلة كشأننا ! ولنسرح في جميع الآفاق المفتوحة ! ولنسترق السمع في كل الاطواء المجهولة ! هات الالحان الرفيعة التي يهجع فيها الجنان ، وهات الالحان الخشنة التي تطفح بزواخر الجنان ! . حتى تحملنا نشوة الغناء الى عالم ساكن وديع ، لاحقد فيه ولا بغضاء . . . يطل علينا من مشارفه وجه الانسانية هادئاً مشرقاً ، واعطني وجه الانسانية الآخر الذي شوهه البغض والكبرياء او تحدث عما اصابه من جروح وقروح ! . . فالانسانية منذ كانت لا تمشي الا بهذين الوجهين ، ولا تخطو الا على سبيلين ، يعانق فيها هداها ضلالها ، وخيرها شرها ! .

هات الليلة كل ما عندك من روايات ، وهيهات ان تنتهي ! وجد الليلة بكل ما عندك من الحان ، وهيهات ان تنفد ! .

هات امرحها وأشجاها ، وهات اضعفها واقواها ! وودع صديقك بخير ما تترك في صدره من الذكريات ! .

يا صاحبي ليس لي شأن في هذا الفراق . ولن يكون لي شأن في اللقاء .

اني – في كل لحظة – اتوقع لقاءك ، وعليك غبرة الاخدود ، لا غبرة الاسفار : لتثب حين تنطلق ، وتغيب في الآفاق يوم تنعتق . ولكن اللقاء . . . وليتك تعلم ميعاد هذا اللقاء ! .

فسلام عليك حين تغيب وحين تعود ! .

حلب — خليل هنداوي

« التلبتي » ومدلولها الفلسفي

بقلم الاستاذ هـ . هـ . برايس*

ترجمة مصطفى القصاص

☆

عرف فريدريك ميوز التلبتي بأنها : « عبور الانطباعات او الانفعالات المختلفة من كائن الى آخر بمعزل عن طرق مواصلات الاحساسات المعروفة » . فهل هنـاك حوادث صريحة تؤيد هذا التعريف ؟

— استطيع الاجابة بكل تأكيد : ان نعم ، فان الشواهد الكثيرة التي احصتها « جمعية دراسات الابحاث العلمية » في غضون الستين سنة الاخيرة لا تدع ادنى مجال للشك في هذه الظـاهرة . ولاهمية هذه الشواهد سأتناولها بالمناقشة المتفحصة تناول الفيلسوف الذي يدرس العقل الانساني .

الظاهرة لا تتأثر بالمسافة

ليس التلبثي عندالانسان العادي سوى نوع من انواع المخابرات اللاسلكية وهذا – بلا شك – تشبيه غامض خداع ، اذ انه لم يثبت لنا الى الآن برهان واضح لاية اشعاعات طبيعية تصدر عن دماغ الى آخر اثناء وقوع ظاهرة التلبتي ، كما انه لم يثبت لنا وجود اي مركز في الدماغ مهمته ارسال الاشعاعات او التقاطهـا ، او وجود اية مادة تصد او تعكس او تكسر مثل هذه الاشعاعات . زد على ذلك ان كل اتصـال طبيعي بين شخصين يجب ان يجري طبقاً لقواعد واضحة معروفة من قبل ، فالافكار تصاغ في بادىء الامر على صورة كلمات ، ثم تتحول هذه الكلمـات الى اشارات كهربائية خاصة ، وكلها تجري طبقاً لخطة موسومة سـابقاً ، ومن جهة اخرى يجب ان يكون في الجهة المقابلة طريقة اخرى لهـا عكس عمل الاولى غايتها فك الرموز المرسلة واعادتها الى اصلها ، كلمات واضحة .

كل هذه العمليات لا نجد لها اثراً في التلبتي فقد بان لنـا انه يحدث دون ان يتأثر بقياس المسافات فان الكائن المرسل والكائن اللاقط يمكن ان يكونا في غرفة واحدة ، كما يمكن ان يكونا على بعد عدة كيلو مترات او على بعد مئـات الكيلومترات وقد ظهرت عدة تجـارب عملية برهنت على ان التلبتي لا تتأثر بالوقت ايضاً ، فان الكائن اللاقط لا يدرك مثلاً ما هو موجود الآن في فكر الكائن المرسل ولكن ما سيوجد في فكره بعد قليل . . فأي آلة لاسلكية هي هذه ، التي يمكنها ان تلتقط المكالمة قبل ارسالها ؟ !!!

الى هنا تظهر لنا « التلبتي » كعملية وجدانية بحتة ، انها تماس مباشر بين نفس واخرى بدون اية واسطة طبيعية ، فاذا كان هذا هو الواقع فسيكون مجالاً لعدة احتمالات ، ومن ثم ستنهار نظرية الادراك المادي للشخصية الانسانية ، التي تقرر ان كل ظاهرة وجدانية يجب ان تتعلق بظاهرة طبيعية سـابقة متركزة في المخ ، وبذلك تسمح لنا التلبتي على الاقل ان نفترض ان العقل الانساني يستطيع ان يبرهن عن وجوده بالقيام ببعض الاختبـارات المحققة حتى ولو كانت الاجهزة العضوية الطبيعية في حالة غيبوبة .

وعلى هذا فأنا لا اعتقد بأن التلبتي هو معرفة مباشرة بين نفس واخرى (قد يمكن ان يحدث مثل هذه المعرفة المباشرة في بعض الحالات ولكن اذا وجدت فعلينا ان نعطيها [1] اسماً غير التلبتي

* هـ . هـ . برايس : استاذ المنطق في جامعة اكسفورد ، وعضو جمعية الابحاث النفسية ، واحد اساطين الفلسفة الانكليزية المعاصرة .

(١) ومن هذا يظهر صدق تسمية هذه الظاهرة بكلمة « التواجد » في مفهوم قريب من مفهومها الصوفي على ما رأى البعض من الباحثين النفسيين ، ومن ثم سنعتمد هذه التسمية في سير مقالنا . المترجم

وليكن التلنيوزيس télégnosis مثلاً (اي المعرفة عن بعد) فإذا كان التواجد نوعاً من انواع المعرفة فيجب ان يكون معصوماً اذ انه يستحيل علينا القول اننا نعرف شيئاً ما اذا لم يكن هو نفسه حقيقة واقعة، ولكن قد تقع غالباً بعض الاخطاء في المكالمات التواجدية، اذ اننا نصادف جميع درجات التوافق اثناء عملية التواجد بين الكائن المرسل والكائن اللاقط، فحيناً تتفق التجربتان تام الاتفاق، واحياناً تكون الموافقة من الضعف حتى لا نستطيع ان نحكم عليها بأنها حالة من حالات التواجد ام لا. زد على ذلك ان الكائن اللاقط لا يستطيع ان يعرف الحالة التي يصيب او يخطئ فيها ومن هنا يظهر لنا ان التواجد نوع خاص من انواع السببية عندما تؤثر النفس مباشرة على نفس اخرى، لا شكلاً خاصاً من اشكال المعرفة حيث يكون لنفس ما ادراك مباشر لنفس اخرى.

يحق لنا بعد هذا ان نتساءل: كيف «تنتقل» الفكرة او الاحساس من نفس الى اخرى؟.

— ان المسألة اصعب مما نتخيلها. لنسجل في بادئ الامر ان هذه «النقلة» — اذا كان هذا الاسم يوافقها — تحدث في مستوى اللاشعور، اذ ان المنقول الى الكائن اللاقط هو شيء لم يفكر فيه الكائن المرسل بطريقة شعورية، كبعض الذكريات مثلاً التي لا يعيها في الوقت نفسه. كما ان الكائن اللاقط من جهة اخرى لا يعرف عادة انه في حالة اتصال تواجدي مع نفس اخرى.

هذا التماس اللاشعوري ليس هو كل العملية التواجدية وانما هو اهم نقطة فيها واخطرها وساعد اليها قليل، فقبل ان يكون هناك اتصال تواجدي، يجب في الاحساس ان يرتفع بأي شكل كان الى مستوى الشعور ولنستعمل هنا تعبيراً فنياً ادق، يجب فيه ان يتخطى الفاصل بين اللاشعور والشعور وبدون هذا لن يكون هناك اي اتصال ما بين كائنين.

وهذا يلقي ضوءاً على سؤال هام، وعندي انه بدلاً من التساؤل: كيف يمكن ان يحصل الاتصال التواجدي، ان نطلب لماذا لا تحصل هذه الاتصالات التواجدية غالباً، او دائماً؟، وعلى هذا نجيب ان الاتصال التواجدي اللاشعوري يحدث دائماً بين الناس ولكن يحتمل ان يكون عند كل فرد منا رادع شبيه بـ «رقيب» فرويد الذي يوقف اكثرية هذه الاحساسات اللاشعورية ويمنعها من الوصول الى منطقة الشعور الواضح، ويفسر هذه الظاهرة عدة عوامل بيولوجية وجيهة. نحن نجد انه من الصعب علينا جداً ان نعتاد على وسط طبيعي ما، اذا كان شعورنا تتنازعه الاحساسات التواجدية الآتية من الجميع، وليس مما يحيط بنا بشراً كان او حيوان، بل من اولئك الذين تفصلهم عنا المسافات الشاسعة ونترقى فنقول بل من الذين عاشوا قبلاً ثم انقرضوا، او الذين سيوجدون في المستقبل، والمهم انهم ليسوا احياء في الحين نفسه وعلى كل يبدو لنا ان من الطبيعي وجود نظام رادع في نفوس الكائنات الحية الذين هذبوا حواسهم وذكاءهم في سبيل الاعتياد على العالم الخارجي.

نقل العواطف والصور:

قد تنجح الرسالة التواجدية في بعض الاحيان في تخطي الحواجز لتظهر في مستوى الشعور بكثير من الطرق المتعددة المختلفة، لان من المحتمل ان تكون درجة المقاومة او طبيعتها التي تعترض سبيل هذه الرسالة متقلبة قليلاً، باختلاف الكائنات اللاقطة او باختلاف حالاتهم الوجدانية التي يكونون عليها في ذلك الحين. الا ان هناك نقطة مبهمة مشتركة بين جميع الحالات، هي ان الفكرة او الاحساس الملتقط لا شعورياً يمر في الشعور بصورة رمزية، ففكرة الموت مثلاً يمكن ان تبرز في صورة باقة من الازهار اذا كان الكائن اللاقط يستدعي صورة الازهار بفكرة الدفن.

ولعل الواقع في تخطي الحاجز بين الشعور واللاشعور — حتى وفي بعض الاحيان لا يمكن تخطيه مطلقاً الا اذا لبست الفكرة ثوباً رمزياً — يسمح لنا تفسير الاخطاء التي تحصل في المكالمات التواجدية.

من المحتمل ان يكون التقاط الفكرة والانطباع التواجدي صحيحاً، الا انه يحدث له مـا يغير طريقه ويحرف مجراه عن الكائن اللاقط.

ان ابسط شكـل بدائي تظهر فيه الاتصالات التواجدية يكون بواسطة عاطفة او انفعال كالعواطف الغامضة مثلاً — الخوف او الاحساس بالخطر او الانحطاط — تقتحم فجأة نفس الكائن اللاقط، ويلي ذلك الشكل البسيط للصورة المنقولة وجدانياً او بالرؤية او بالسماع، او غير ذلك... كأن يفكر الكائن المرسل في مقص عادي، وفي نفس الوقت يتلقى الكائن اللاقط الصورة الوجدانية للمقص، وفي حالة اقل نجاحاً يتلقى صورة بيضويين يخترقهما خط مستقيم الى جانبيها. وفي بعض الاحيان تظهر الرسالة في شكل حلم تواجدي، او في شكل الفاظ آلية اثناء الكلام او الكتابة كأن يجد الكائن اللاقط نفسه في حالة يتلفظ فيها او يكتب كلمات تؤلف حادثاً حقيقياً، — كان يجهله تام الجهل — عند نفس اخرى.

ننتقل الان الى احتمالات هي اهم عندنا وأجدى، فان الانطباع التواجدي يمكن ان يظهر في شكل تجسدات وهمية وفي بعض الاحيان يتخذ شكلا سماعياً كأن يخيل للكائن اللاقط مثلا انه يرى ورقة خيالية كتبت عليها رسالة ما ، او يخيل اليه انه يسمع صوتاً ، وحيناً آخر يتخذ الانطباع التواجدي رؤية خيالية تنعكس في صورة كرة بلورية ، او حوض مليء بالماء ، او اي سطح مصقول آخر .

واخيراً يمكن للانطباع التواجدي ان يظهر في صورة اكمل جلاء ووضوح، تسمى الفانتاسم التواجدي Le phantàsme télépathique وفيه يخيل للكائن اللاقط انه يرى امامه وفي نفس الغرفة التي يسكنها جسم الكائن المرسل الطبيعي بكامل هيئته، وهذا هو اكمل شكل يظهر فيه الانطباع التواجدي اللاشعوري . واقول اكمل لانها تجبر الكائن اللاقط على ان يعيرها كل انتباهه ، وبذلك تؤثر على سائر افكاره وأفعاله .

ان الرؤى التي تهم الفلاسفة هي الظواهر النفسية الشيقة ولا سيما اذ كانت فلسفة الادراك الحسي تهمهم مثلي ، ولن اطيل الكلام في ذلك ، بل اؤكد ان هذه الرؤى بما فيها « الارواح العائدة » و« الاشباح » التي يكثر ذكرها على ألسنة العامة ترجع بدون شك الى اصل تواجدي .

ولا بد انك متسائل كيف يمكن التوصل لالتقاط الانطباع لاشعورياً، او كيف ينتقل الانطباع او الفكرة من كائن الى آخر ؟.

لا استطيع الجواب على هذا واعتقد بانه لا مجال لذكره ، اذ اننا بسؤالنا كيف تنتقل الافكار، نكون قد افترضنا ان الفكر — او بالاحرى القسم اللاشعوري الموجود فيه — هو كيان منفرد قائم بذاته ، وليس هذا صحيحاً اذ ان وجود التواجد كحقيقة واقعة يدحض هذا الافتراض . وعلى كل حال فانه يستحيل علينا جداً ان نقر بأن للافكار ذاتيات، منفصل بعضها عن البعض الآخر اذ انها ليست شيئاً يملأ الفراغ كالاجسام، فاذا افترضنا ان للافكار ذاتيات منفصلة، فان ذلك سيقودنا حتماً الى الاعتراف بانفصالها عن مبدأ السببية وذلك يعني ان الافكار هي نوع من النظم المغلقة المنعزلة ، وبعبارة اخرى سنضطر الى عدم الاعتراف بتأثير نفس ما على نفس اخرى تأثيراً مباشراً وبذلك نكون قد نقضنا حقيقة التواجد التي تقر بوجود مثل هذا التأثير المباشر من نفس على اخرى . ومن هنا نرى ان السؤال « كيف تنتقل الافكار » هو في حد ذاته متناقض تماماً ، كما لو كنا نتساءل : كيف يحدث التواجد بعد ان نكون قد قررنا انه لا يمكن ان يحصل .

وعلى هذا تكون افضل طريقة للخلاص من هذا الاضطراب هي ان نعيد البحث في الفكر الانساني ولا سيما بعد ان برهن التواجد على انه ليس للافكار ايا كانت — في مستوى اللاشعور — ذاتيات منفصل بعضها عن بعض ، وعلى هذا لم تعد مسألة التواجد مسألة « نقل » حقيقية لانه يصعب علينا — في مستوى اللاشعور — ان نميز بين فكر وآخر ، وعلينا ان نفترض انه اذا كان لافكارنا الشعورية ذاتيات منفصلة فسيوجد تبعاً لذلك — الى حد ما — لاشعور مشترك بين جميع افكار الكائنات البشرية ويحتمل ان يكون بين انواع الحيوان الاخرى ايضاً . فالام تقودنا حادثة هذا اللاشعور المشترك ؟ — ان هذا يعني انه يجب علينا ان نعيد البحث ثانية في افكارنا التي تمس نطاق القوانين النفسية علينا ان نفكر فيها بوجه عام وان تهتم ايضاً بالعلاقات السببية التي تجري في داخلية فكر ما والظواهر التي تجري في فكر آخر .

لقد قر في ذهن الاستاذ هواتلي كارنغتون كما نشر في مؤلف له حديث عن التواجد ، ان هذه الظاهرة تخضع لقوانين تداعي الافكار العادية ، ورد ذلك الى انه اذا حدث التداعي على اثر فكرتين في نفس ما فانه يحدث تماماً لكل النفوس ، والحقيقة ما قال به الاستاذ كارنغتون من ان هذه العملية « الانتقالية » انما تجري طبقاً لقوانين تداعي الافكار العادية . وقد اجاب بعض النقاد على هذا بأنه : «كلام معقول» ولكنه تساءل ! «لماذا لا يمكن ان يصح هذا الا مع قانون تداعي الافكار دون غيره من القوانين السيكولوجية » نحن نعتقد ان هذا لا يصح الا اذا كانت قوانين تداعي الافكار هي وحدها كل قوانين علم النفس وهذا ما ينكره اكثر علماء النفس المعاصرين .

وهكذا يكون رأينا الذي نعتمده . ان بعض العلاقات السببية التي نكون قد اكتشفناها في فكر خاص تستطيع ان تحدث خارج نطاقها ، اذ انه في مستوى اللاشعور تنهار الحدود الفاصلة بين فكر وآخر ، واذا افترضنا جدلا وجود حدود ما فانها تكون باهتة ضعيفة لا قيمة لها .

وعلى هذا لن نستطيع ان نضع خطاً واضحاً بين محتويات فكرك وفكري وسنجد ان كل محاولة في سبر غور اللاشعور لتمييز افكارنا عن بعضها عمل لا معنى له .

مصطفى القصاص

الموصل

•

ت في الحفلة الكبرى التي أقامتها مديرية معارف اللواء في فندق المحطة احتفاء بالوفد الثقافي السوري في آذار ١٩٤٧



سلامُ الربيع على الموصلِ ... عـلى موطن الحسن والموئلِ
سـلام الشآم كنفح الخزام ... وإصغـاءة الروض للبلبل
لأنتِ هناءةُ قلب الشجيّ ... وأنتِ بشاشةُ قلب الخلي
وأنتِ الهوى والمنى والصفاء ... وريحانة الحقـل والجدول
رأيتكِ في الحلم المستطابِ ... وفي ظله الوارف المسبـل
وأنشدتكِ الشعر يهفو هوى ... وشعري إما يهم يجمـل
وأنشدتني فحببت النشيـد ... وغلغلت في سحره الأطول
فيا موصلَ الحبِّ والذكريات ... ويا مأملاً طبت من مأمل
حبتك يـد الله فينانةً ... بغير المواهب لم تنجـل
كساها الربيع السخي الغنيُّ ... تعاشيب من ناعم مُخمـل
فعطر النبوّة في افقهـا ... وإشراقةُ الأدب الأحفـل
«حبيبٌ[1]» على راحتيها استراح ... وفي مهدها نبغ «الموصلي[2]»
وأغفى على صدرها «ابن الأثير[3]» ... مدوّن تاريخنـا الأكمـل
ففي الجوّ ما شئت من عابق ... وفي التربْ ما شئت من مندل
كتاب الجهـاد فهلّا تلوت ... وكون من الأطيب الأفضل

---

(١) حبيب : هو أبو تمّام حبيب بن أوس الطائي شاعر أمجاد العرب ، يقوم ضريحه في حديقة بلدية الموصل في شارع نينوى .

(٢) هو النديم الموصلي أبو اسحاق ابراهيم بن ميمون أوحد زمانه في الغناء واختراع الالحان، رحل الى الموصل فأقام يتعلم الغناء فنسب اليها .

(٣) ابن الاثير : هو المؤرخ الكبير أبو الحسن عز الدين بن علي صاحب (الكامل) ويقوم ضريحه في الجانب الغربيّ من المدينة .

ودنيا تألق بالمكرمات ... وترفل في الرائق الأجمل

تزورك والعين تندى منى ... وفي القلب عاطفة تمتلي

فزوري الاحبة في ساحهم ... وطوفي بمقلك الاول

نناجيك في لهف شامل ... نناديك والشوق لا يأتلي

فيا موصل المجد لا تمطلي ... ويا موصل الجود لا تنجلي

ترقرق طيفك في خاطري ... وجال خيالك في مقولي

فهل أنت قلبي ذوبته ... فسال شعوراً على اغلى

وهل أنت شعري هلهلته ... كما انسكب النور في المنهل

قبست قريضي من وحيها ... فمنها معاني واللفظ لي

والهمت النفس اشهى اللحون ... وجادت بنائلها المجزل

وأسعدت الفكر بالرائعات ... وأغنت بأضوائها مشعلي

تعالي تري في حنايا الفؤاد ... لهيباً من الشوق كالمرجل

تعالي تري في مطاوي الجفون ... خيالك متشحاً بالحلي

ألم الربيعين زيدي علا ... وتيهي بهذا السنا وارفلي

لقد صاغك الله روضاً يرف ... ويزهي بموشيه المخضل

أنيري السبيل وكوني الدليل ... وصولي على ليلنا الأليل

سنحيا بعابقك المستطاب ... ونفنى بأيمانك الامثل

فيا رفة السعد لا تأفلي ... ويا زهرة المجد لا تذبلي

ويا دجلة النعميات العذاب ... صلي لحنك الحلو او سلسلي

سجل من العهد الباقيات ... حديث من السحر لم يملل

شريط البقاء وخط الخلود ... وماض اطل على المقبل

ونجوى الدهور وشعر الزمان ... تغنت به شفة الشمأل

هنيئاً لمن عب امواهها ... فمن عب امواهها يثمل

ومن ذاقها ذاق خمر الجنان ... وعل من الكوثر السلسل

فيا نفس ان شئت ان تسعدي ... فمن ذكريات الحمى فانهلي

وعودي الى فجرها الاول ... وعيشي بنعمائها واجتلي

وإما حننت وهاج الهوى ... وتقت الى الإلف والمنزل

فشدي الرحال الى الموصل ... وقومي الى حسنها هللي

دمشق ... انور العطار

التدوين العلمي والادبي في الجاهلية

بقلم عيسى ميخائيل سابا

☆

يزعم غير واحد من مؤرخي الادب وغير واحد من المستشرقين ان العرب قبل الاسلام لم يكن عندهم علم منظّم ، وما عرفوا الا بعض مشارفات قليلة من معارف أولية، قضت بها احوال المعاش وطبيعة الارض التي قطنوها .

ولكن الرجل المنصف يقف امام هذا الزعم وقفة الحائر ، فلا يطمئن الى ما قرره المستشرقون وغيرهم لانه ليس من المعقول في شيء ان يكون الشعب الذي عاصر دول المصريين والرومانيين والفرس والاحباش وكلهم اصحاب علوم مدونة ومدنية ظاهرة اثبتها النقل وايدتها الآثار ، خلواً من العلم ، وقد كان له رحلات متعددة ومعاملات تجارية مع امم تلك الدول، والعلوم والصناعات لازمة لحضارة الامم ، متناسبة معها ، ولا سيما انّ من العرب اهل حضارة دلت عليهم دولهم وقدم تاريخهم وآثارهم ، وهم التبابعة في اليمن والمناذرة في العراق والغساسنة في مشارف الشام فكانت هندسة ارواء الارض وعمارة المدن والحساب والطب والبيطرة ، والزراعة ونحوها معروفة في الجنوب (الحيرة) والشمال (اليمن) والحجاز مدونة في الكتب ، وان لم يحفظ لنا الدهر صوراً منها ، وقد كفل لنا الشعر شيئاً من معرفة الصناعة وذلك في قول طرفة :

عدولية او من سفين ابن يامنٍ   يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي

***

كقنطرة الرومي أقسم ربها   لتكتنفن حتى تشاد بقرمدِ

***

وخدٍ كقرطاس الشآمي ومشفرٍ   كسبت اليماني قده لم يجرد

وفي ذلك اشارة الى صناعة السفن والبناء وصناعة الورق . على ان الاستشهاد بالشعر لا يمكّن من الحقيقة لما في الشعر من الاخيلة والتشابيه وقد تؤخذ بالسماع ، ولكن نسأل انفسنا ، هل لدينا ما يثبت التدوين عند العرب قبل الاسلام ؟ .

نسأل الكتب التي بين ايدينا فتقول لنا « انه كان عند آل النعمان بن المنذر ديوان فيه اشعار الفحول ، وما مدح به هو واهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان [1] » .

ولنا ادلة على التدوين فيما ورد في تاريخ ابن خلدون [2] وذلك : ان عديّ بن زيد الحيريّ كان من تراجمة ابرويز ملك الفرس ، وان اباه زيداً كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس .

ونحن ازاء ذلك لا بد لنا من ان نسأل، ما هو كتاب العرب؟ ولكي نعرف ذلك الكتاب لا بد لنا من ان نبحث عن المذاهب المنتشرة آنذاك ، فنسأل ابن قتيبة فيجيبنا عن ذلك في كتابه « المعارف » عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية قوله : « كانت النصرانية في ربيعة ، وغسان وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم منهم زرارة وحاجب بن زرارة ومنهم

---

(١) البلغة في اصول اللغة طبعة الجوائب القسطنطينية ص ١٠٢

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ وفجر الاسلام الطبعة الثانية مطبعة الاعتماد مصر ص ٢٠

الاقرع بن حابس وكانت الزندقة في قريش اخذوها من الحيرة ».

وتلك المذاهب المنتشرة بين ما تقدم ، من القبائل تدعونا الى القول انه كان لها كتب يتداولها اصحابها ليفهموا حقيقة معتقدهم، ولا بد من ان تكون بلغتهم العربية ، وحيثما يوجد الدين توجد الفلسفة ، وحيثما توجد الفلسفة يكون العلم ويكون التدوين .

وقد يتساءل البعض ، اين اذاً كتب القوم ولمَ لم يصلنا منها شيء ؟ وهو سؤال وجيه ، وللاجابة عنه لا بد لنا من التفتيش والتفميش في الاصول التي بين ايدينا ، والقاعدة العامة في ذلك « اذا فقدت الاصول فقد التاريخ » فمن يكفل لنا الجواب ؟ .

وهنا نطرح السؤال على ابن خلدون فيقول لنا في مقدمته « ان اهل الكتاب من العرب (واهل الكتاب هم النصارى واليهود) اصطلحوا للدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها ، كوضع الف وباء وجيم وراء وطاء الى اخر الثانية والعشرين [1] » ويقول لنا ايضاً « وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل فأين علوم الفرس [2] » ونحن نعلم ان عرب الحيرة كان لهم اتصال وثيق بالفرس وكانوا عمالهم ولا شك في انهم اخذوا عنهم كثيراً من المعارف ترجموها الى لغتهم العربية ويخبرنا ابن جرير الطبري في تاريخه الكبير بقوله : وقد حدثت عن هشام ابن الكلبي انه قال : اني كنت استخرج اخبار العرب وانساب آل نصر بن ربيعة (الحيريين) ومبالغ اعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وامورهم كلها [3] » فمن ذلك نعلم ان الزندقة لم تكن وحدها في الحيرة بل كانت الى جانبها النصرانية، وحيثما حلت النصرانية تحل الحركة الفكرية معها لما فيها من العقائد اللاهوتية المرتكزة على الفلسفة ولا سيما المنطق ، ويؤخذ من قول ابن الكلبي ان العلم كان عند الرهبان في بيعهم (اديرتهم) ثم ان صاحب الاغاني يقدم لنا خبراً نستأنس به قال : « ان يحيى بن متى راوية الاعشى (وكان نصرانياً عباديا) وكان الاعشى قدرياً ، وكان لبيد مثبتاً قال لبيد : .

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

(١) مقدمة ابن خلدون المطبعة الادبية ببيروت — الطبعة الثالثة — سنة ١٩٠٠ ص ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٣٧ .

وقال الاعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولّى الملامة الرجلا

قلت : فمن اين اخذ الاعشى مذهبه؟ قال : من العباديين نصارى الحيرة، وكان يأتي ليشتري الخمر فلقنوه ذلك [1] » على ان العلم والتدوين قد تناولا غير العرب الحيريين فقد عرفتهما قريش ايضاً بدليل ما روى لنا ابن هشام قال : « ان سويد بن صامت قدم مكة حاجاً او معتمراً وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه ، فتصدى له رسول الله (ص) حين سمع به ، فدعاه الى الله والى الاسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي : فقال رسول الله (ص) وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان، فقال رسول الله (ص) اعرضها عليّ فعرضها عليه، فقال له : ان هذا الكلام حسن والذي معي افضل من هذا [2] . . . » وهنا لا بد لنا من القول : ان وجود المجلة بيد سويد يدعونا الى التقرير ان التدوين كان موجوداً ، والتدوين مدعاة الى العلم ، وقد تقدم معنا ان نفراً ذا عدد من اهل الجاهلية كانوا يكتبون ، وكان لهم اتصال بغيرهم من الامم المجاورة ويذكر لنا اوليري في كتابه [3] ان بعض مؤرخي الفرنجة يذهبون الى انه كان في مكة بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية والتجسس على احوال العرب وكذلك كان فيها من الاحباش قوم ينظرون في مصالح قومهم التجارية . وهذا الاختلاط التجاري يحملنا على القول الأكيد انه — اي الاختلاط — قد أثر في العرب ودعاهم الى العلم ، والتجارة كما نعلم تحتاج الى تدوين والى حساب ومراسلات ، ويخبرنا صاحب فجر الاسلام بان « عبد الله بن عباس كان يعرف شيئاً من الكتب الاخرى كالتوارة والانجيل وكانت اكثر حياته علمية يتعلّم ويعلِّم [4] » والمتواتر عند اهل العلم ان ابن عباس لم يكن يحسن غير العربية، فيؤخذ من هذا ان التوراة والانجيل ترجما الى العربية ، ولا شك في ان الذين انتدبوا انفسهم الى تبشير العرب قد ترجموا الكتب ليتمكنوا من إتمام رسالتهم وتعليم المبشرين امور دينهم ، وقد يكون للعرب النصارى « ليتورجيا » في اللغة العربية .

(١) الاغاني ج ٨ ص ٧٩ وج ١٠ ص ١٦٣

(٢) سيرة ابن هشام من شرح الروض الأنف ج ١ ص ٢٦٥

(٣) Arabia Befor Mohamad. O'leary .

(٤) فجر الاسلام الطبعة الثانية ص ١٧٥

وعدا ما تقدم يذكر لنا السيوطي في كتابه المزهر عن حماد الراوية انه قال : « امر النعمان بن المنذر فنسخت له اشعار العرب في الطنوح — وهي الكراريس — ثم دفنها في قصره الابيض ، فلما كان المختار بن ابي عبيد الثقفي قيل له ان تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الاشعار [1] » ومما يؤيد التدوين ايضاً قول ابن خلدون « رأى النبي (ص) في يد عمر ورقة من التوارة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه .. [2] . » ويقول ان اهل الحجاز لقنوا الخط من الحيرة و لُقنها الحيرةُ من التبابعة وحمير [3] ويخبرنا ياقوت الحموي في معجمه من انه كان منقوشاً في صدر دير هند ما يأتي : « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المنذر أَمة المسيح وام عبده وبنت عبيده في ملك مَلك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مـار أفريم الاسقف ، فالاآه الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيتها ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها وبقومها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر [4] » وهذا اثر منقوش لا يحتاج الى دليل ليثبت لنا ان لغة اهل الحيرة لا تختلف عن لغة اهل الحجاز ، بخلاف ما يزعمه بعض مؤرخي الادب المعاصرين ، ثم ان نسبة وضع النحو الى ابي الاسود الدؤلي لم يقم عليه دليل قاطع جازم ، فالنحو كان علماً مدوناً قبل الاسلام بدليل ما جاء من « ان القوم (العرب) قد تداولوا الاعراب ومـا قالوه : ان ابا الاسود اول من وضع العربية وان الخليل اول من تكلم في العروض ، فنحن لا ننكر ذلك بل نقول : ان هذين العلمين قد كانا قديماً ، واتت عليهما الايام وقلاً في ايدي الناس ثم جددهما هذان الامامان . ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على النحو الذي يعلله النحويّون في ذوات الواو واليـاء والهمز والمد والقصر [5] »

وعلى مـا تقدم نعلم ان النحو كان علماً مدوناً قديماً واتقنه العرب ونبهوا على اللحن وقد قال احمد بن فارس في كتاب الصاحبي في فقة اللغة « والدليل على صحة ان القوم قـد تداولوا الاعراب ، ان نستقري قصيدة الحطيئة التي اولّها :

---

(١) المزهر ج ١ ص ١٦٨
(٢) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٦
(٣) المصدر نفسه ص ٤١٨
(٤) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٠٢
(٥) البلغة في اصول اللغة ص٨٩

شـاقتك اظعـان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والاعراب تجيء مرفوعه ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه ان يختلف اعرابها لان تساويها في حركة واحدة اتفاقاً لا يكـاد يكون » ثم ان ابا الاسود الدؤلى لم يبدع النحو ابداعاً في ما زعموا ، فقد كان قديماً كما تقدم ، لانه ليس من العقل في شيء ان يصل النحو بعدة وجيزة معالاً . ويذكر لنا الامام السيوطي في كتـابه المزهر [1] « ان العلم الضروري حاصل بانه كان في الازمنة الماضية موضوعاً لهذه المعاني ، فانا نجد انفسنا جازمة بان السماء والارض كانتا مستعليتين . . وكذلك لم يزل الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً والمضاف اليه مجروراً ، وان لغة العرب لم تنته بكليتها وان الذي جـاءنا عن العرب قليل من كثير » وقال عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير [2] » وان صح لدينا ما ذهب اليه غير واحد من العلماء من ان كتاب ايوب الصديق قد كتب بالعربية و فُقد بعد ترجمته الى العبرية ، فيكون العلم قـد دوّن عند العرب من زمن سحيق .

هذه محاولة قد استقيتها من مصادر موثقة تشير الى ان العلم كان معروفاً ومدوّناً في العصر الجاهلي ، وما حملني على كتـابة هذا المقال الا كثرة مـا ردده البعض ويردده من ان العرب في جاهليتهم لم يعرفوا علماً ولم يكن عندهم تدوين .

وخير ما اختم به الكلام قول الجاحظ ومنه نستشف السبب الذي من اجله لم يصلنا شيء مدوّن او منقوش . جاء في كتاب الحيوان « ان من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم ، وان يميتوا ذكر اعدائهم ، فقد هدموا ، بذلك السبب ، المدن واكثر الحصون ، كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في ايام الاسلام كما هدم عثمان الآطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم اصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبني مروان » .

وعسى ان يتصدّى ارباب العلم لبحث هذه النـاحية وقد يكون لديهم مراجع غير ما ذكرت وكل آت قريب .

عيسى مخائيل سابا

---

(١) المزهر ج ١ ص ٧٢
(٢) الخصائص لابن جني ج ١ ص ٣٩٢

لمحات في الديانة الهندية

بقلم بولس سلامة

☆

لا يخفى* على كل بصير ما للهند من تأثير في مجرى الفكر البشري وعلى الاخص ما يتعلق بالدين لذلك رأينا ان نستعرض في بضع مقالات اهم النقاط التي ترتكز عليها فلسفة الهند واديانها وهي من اعرق واقدم ما عرفنا في تاريخ الفكر البشري.

منذ فجر التاريخ تكونت في الهند القديمة فكرة خاصة تسربت اليها من التراث الآري الهندي. هي فكرة دارت حول الحياة والكون وهجرة الارواح وانتظار الثواب والعقاب في حياة اخرى وكيفية التخلص من التناسخ اي تقمص الارواح باعتبار انه عقوبة للانسان اذ كلما عاد الانسان مرة الى هذه الارض عاوده الالم وكان ذلك تكفيراً عن ذنوب سلفت في حياة اخرى سابقة. واجمع الهنود على ان الوسيلة الناجعة للتخلص من الالم هي السيرة الصالحة والتزام العفة وادراك المعارف المقدسة وقد تفرع عن ذلك فكرة التقديس والتأليه. ولم يخرج عن هذه المبادئ الاساسية احد من العلماء الروحانيين في الهند حتى ان غوتاما بوذا نفسه لم يخالفها. والمرجح ان المثقفين من الهنود القدماء لم يؤمنوا بإله ذاتي يستطاع تصوره فلم يؤمنوا لذلك بالصنم بل كان جوهر معتقدهم رياضة النفس على التقشف وادراك المعارف الروحانية العليا سعياً للخلاص من التقمصات العديدة. ولقد نبتت على حواشي هذه الفكرة الاساسية طفيليات اخرى وهي فكرة تعدد المعبودات او الاعتقاد بمعبود واحد ولكنه توحيد محفوف بالغموض رغم تسليمهم بان هذا الخالق هو مبدع الكائنات، مبدؤها وغايتها الاخيرة وانه كائن عقلي لا يدركه الحس. وبسبب هذا الاعتقاد ساد النظام في الادبيات وعرفت الفضائل وحددت الخطايا وكفّر المخالفون. وقبل ظهور بوذا كانت الصيغ الفلسفية وقضية الاتصال بالله قد رسخت في الاذهان.

وقبل نشوء البراهمة كان الهنود القدماء يعتقدون بان سعادة الاموات موقوفة على الخدمات التي يؤديها احفادهم الشرعيون من الذكور وتفرع عن ذلك ان الزواج الزامي لان المتزوج يكفل الغبطة لاجداده ويؤمنها لنفسه بما سيفعله احفاده من اجله. ومن هذه الواجبات المفروضة على الاحفاد احراق الجثة ودفن العظام وبذل التقادم اليومية واقامة المآدب وما يرافق ذلك من الطقوس والعادات. ومن معتقداتهم ان الميت اذا كان من الاخيار وقدم الافعال الصالحة في حياته فانه ينعم بالملكوت النوراني في معية الملك الاول ياما ويكون في صحبة اجداده المغبوطين الذين يرحبون باحفادهم الاتقياء الداخلين منازل النور هذه. اما المحرومون من مملكة النور فغالباً ما يكونون في عداد الاشباح الهائمة ولكن قضية العقوبة الاخروية وتفصيلها لم تبحث بحثاً جدياً في هذا الطور الاول من تاريخ الهند. ولقد آمنوا ايماناً راسخاً بان الآلهة تبتغي القرابين المستمرة فكانوا يرفعون لديها الصلوات مستمطرين الذرية الوافرة من الذكور. والعمر الطويل واقتناء القطعان العديدة والحصول على الثروة والغنائم. وقلما كانوا يصلون مستغفرين من ذنب او تخوفاً من عقوبة. وفي الغالب كانت تنشد هذه الصلوات انشاداً يرافقه النغم والايقاع في احتفالات متعددة تقدم في اثنائها الاطعمة للآلهة فاذا كان الاحتفال شائقاً اضيف الشراب المسكر الى المائدة. وهو شراب السوما الذي كان يسكب غالباً على نار المحرقات معتبرين ان للآلهة عطفاً على المخلوقات وانها تسر بالضحايا وبينها من يهتم كثيراً للاخلاق والادبيات.

وعلى رأس هذه الآلهة أهيدا وهو المبدع الحافظ للاجرام السماوية والكواكب، واندرا وهو آله الحروب واله ولع بالشراب

* من كتاب « حديث العشية » المعد للطبع .

وخصوصاً شراب السوما وهو الذي ينزل المطرفيروي الارض ويملأ الانهر والغدران ويفتك بالشياطين المبثوثة بالاجواء .

اما الاله المحبوب فهو النار لانه اقرب الآلهة من البشر اذ انه رب وصديق معاً يحمل تقادم الناس الى الآلهة ومنها الاله الشمس الذي يسير هذه المركبة الذهبية في الجو وهو يبصر في الليل بواسطة النجوم لانها عيونه . ولم يزل الملايين من الهنود يرفعون صلاة الصبح للاله سافيتا وهو احد ألقاب الاله الشمس فيبتهلون اليه اليوم كما كانوا يضرعون اليه منذ اربعة آلاف سنة .

وعلى الرغم من الاعتقاد بهذه الآلهة فان السحر ظل يفعل فعله في الهند وان في ما قدمناه عن الديانة الهندية القديمة نقاطاً عديدة تشترك فيها سائر الاديان العتيقة خصوصاً عبادة الاجداد والتضحية لهم والخوف من اغضابهم وبذل المأكول والمشروب لهم والاعتقاد بالسحر ومفاعيله .

اما البرهمية فمعناها الاساسي الصلاة وقد ذكرنا ان الحفلات الدينية كانت تتوالى وتقدم في اثنائها القرابين وترتل الاناشيد ومعلوم ان الشعب كله لا يحسن القيام بهذه الطقوس ولا بد من فئة مختارة تتولى هذا الامر فالبراهمة هم في اصل هؤلاء الكهان ومهمتهم في الهند شبيهة بمهمة اللاويين في الشعب الاسرائيلي وقد لبست هذه الطقسيات شكلاً مقدساً بمرور الزمن وكانت كلما اوغلت في القدم حسبت وحياً وتنزيلاً واضحت علماً خاصاً له مراسيمه واشكاله وكان لاهله منزلة اجتماعية عالية وغدت هذه الوظيفة وراثية وافرادها يعتبرون الوسطاء بين الآلهة والناس لا تقتصر مهمتهم على تقديم القرابين فهم الذين يتولون ادخال الاحداث في الدين ويلقنونهم العلوم الابتدائية المؤهلة وكلمتهم هي الكلمة العليا .

واخذت مهمتهم تمتد وتلبس لوناً جديداً فان النصوص القديمة كانت مجموعة صلوات واناشيد ترافقها بعض القرابين من الطعام والشراب وهي بمثابة عقد بين الانسان والآلهة يتخلى الانسان بموجبه عن بعض مقتنياته لهذه المعبودات . اما البراهمة فاستنتجوا من ذلك اسراراً ورموزاً ثم تخطوا الى الابحاث اللاهوتية وابتدعوا علماً وراء الطبيعة يشرحون بذلك ماهية الآلهة ومصير الاموات وأصل الكون وما يتصل بذلك وتفتحت لهم آفاق نظرية كثيرة والمرجح انهم اهتدوا اليها اما بواسطة الاستقراء او بتأثير البيئة الهندوسية .

وبعد ان انعم البراهمة النظر في هذه الآلهة المتعددة تصوروا ان مصدرها واحد فقرروا ان هذا الاله القدير خالق من ذهب طافي على وجه المياه القديمة وان هذه القوة المبدعة هي التي تحفظ العالم وان الكون كله موجود في هذا الاله ولكن الاله ليس موجوداً كله في هذا الكون بل ربعه في الكون وثلاثة ارباعه الباقية هي في السماء . وهذا هو مبدأ الحلولية (Panthéisme) الذي اعتنقه كثيرون من فلاسفة اليونان اما زعيم الفلاسفة الحلوليين في العصور الاخيرة فهو الفيلسوف سبينوزا . وزعم الهنود القدماء ان الروح هو قرين الجسد اي نسخة عنه ولكنها اخف وألطف فهو جسم روحاني مركب من الاثير ولكنه لا يقع تحت الحواس بالنظر لما فيه من الدقة وهو المبدأ الحيوي المحرك اطلق عليه البراهمة اسم (Atman) ومعناها النسمة وهي النفس . وهذا الجوهر يظهر في حالات الانخطاف وهو عقل وخيال كذات الله

وقد علم البراهمة بان النفوس تهاجر بعد الموت قاصدة الشمس ثم تنزل منها مع قطرات المطر فتغذي النبات والحيوان وبعد ان كان المعتقد الاول بان الولادة الثانية على الارض عقوبة زعم البراهمة بانها شيء طبيعي يلحق بالمخلوقات ولا تعفى منه الآلهة ولا الشياطين وان الالم هو الاصل اما السرور فهو نقطة صغيرة بالنسبة الى خضم العذاب وان لا غبطة الا بالاله برهما ساكن السماء . ولكن روح الميت يجب ان تبلغ من الرفعة مكاناً قصياً بحيث تتجاوز الشمس حتى لا تسقط ثانية الى الارض بل تذهب الى الراحة الابدية حيث تتلاشى في المطلق وقد غير هذا التعليم البرهمي في مجرى الحياة الهندية وقلل من اهمية الطقوس وصرفها من مادية محضة الى رمزية روحانية واستخلصوا من ذلك ان المرء مجازى بعمله فعليه ان يفعل الخير وان النقطة المهمة هي معرفة الحقيقة وادراك الغاية الاخيرة والاتصال بها وان هذا الاله يتجلى بعضه في المخلوقات او في بعض مظاهر الطبيعة كالشمس مثلاً ولم يسلك البراهمة وحدهم سبيل التقشف والزهد بل تابعهم على ذلك فريق من الاعيان والوجوه ومنهم غوتاما بوذا كما سيأتي وقد بقيت في البرهمية آثار كثيرة لعادات الهنود القدماء ومنها عادات السحرة التي نقلت الى التصوف الهندي وفيها الصوم والكفر بالجسد . ولك في فقراء الهنود اليوم امثال كثيرة على ذلك واذا سمعت ان في الهند رهباناً ونساكاً يشحذون ويتقشفون فلا تنس انهم يسعون الى اجتراح الخوارق اكثر مما يسعون الى الخلود وان التقشف الهندي انما نبت في بيئة وثنية .

بولس سلامه

الالفاظ رموز

منزلة الشعر بين الفنون

بقلم ابرهيم العريض



في بعض* دراسات لي حول الفن وبعض مذاهبه في الشعر العربي مضيت اقرر ان الشعر قوامه على عنصرين اساسيين هما اللفظ والمعنى . ثم ذهبت في شرح ذلك مذهباً قد لا أرتضيه الآن . على ان هذا التقسيم وان كان صحيحاً في اساسه وتسلم ببداهته بعض المدارس النقدية في التحليل – قديماً وحديثاً – لا يخلو من اشكال . فهو مثلاً لا يعطي صورة صادقة للاسلوب الناجم عن ائتلاف الالفاظ على نحو خاص . ولا يعلل السحر في الشعر تعليلاً صحيحاً . كما انه لا يستطيع ان يميز بدقة بين مختلف مذاهب التعبير . وكيف يمكن الفصل بين هذين العنصرين بفرض وجودهما مستقلين وهما ليسا كذلك . او اقامة الحاجز بين اللفظ والمعنى باعتبار ان كلاً منهما عنصر قائم بذاته على انفراد مع انهما في الحقيقة شيء واحد .

هذا ما كان يعييني التفكير فيه مدة من الزمان حتى تبين لي اخيراً ان الالفاظ ليست سوى رموز – رموز من عدة نواح لا ناحية واحدة – نستطيع ان نستجلي من ورائها صور هذه المعاني التي نتخيلها – وكل حسب ذوقه – كلما رتلنا ما يتحفنا به الشعراء من آيات . فالصلة القائمة بين اللفظ والمعنى هي في الواقع صلة الروح بالجسد الحي ان صح هذا التعبير . فلو عدم اللفظ اية صلة بالمعنى القائم في الذهن لأصبح لغواً فارغاً . ولو عدم المعنى ما يمثل صورته في الاذهان من الالفاظ لكان « لا شيء » .

والواقع ان الذين يفرقون بين اللفظ والمعنى لا يفعلون ذلك لمجرد انهم يعتقدون ان كلاً من هذين العنصرين قائم بذاته على انفراد . وانما تمهيداً لدراسة هذه الصلة القائمة بينهما دراسة فنية دقيقة . لولا ان هذه الدراسة تقف ببعضهم عند حد الخلاف . وتقصر بالآخرين عن تجاوزها الى نواح اخرى لا تقل اهمية في معرض التحليل .

فاللفظ من حيث هو مجرد كلمة، يتألف قبل كل شيء من هذه الحروف التي ترمز الى اصوات بعينها . وانسجام هذه الاصوات او تنافرها يتيح للفظ قيمة موسيقية لها اثرها في مجال التعبير . على ان هذه القيمة الموسيقية – كما يجب ان نفهم دائماً – لا تقتصر على اللفظ المفرد . وان صح انفراده بها في بعض الاحيان . وانما هي في الشعر بصورة خاصة تتجاوزه – انحساراً او اندماجاً – الى البيت جملة من حيث هو كلام موزون ينتظم عدة ألفاظ في سلك واحد . ومن البيت الى القصيدة كلها التي تتساوق فيها القوافي على غرار خاص . ومن خير الشواهد على ذلك قول عروة بن اذينة في الصدر الاول :

ان التي زعمت فؤادك ملها   خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقة فأدقها واجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي   ما كان اكثرها لنا واقلها
واذا وجدت لها وساوس سلوة   شفع الضمير الى الفؤاد فسلها

ومثله قول صاحب « الملاح التائه » :

رفّت عليه مورقات الغصون   وحفّه العشب بنوّاره
ذلك قبر لم تشده المنون   بل شاده الشعر بآثاره
شيده من لبنات الفنون   وزانه المجد بأحجاره
ألقى به الشاعر عبء الشجون   وأودع القلب بأسراره

ومن هنا ينشأ ما نسمع للنقد في وصف الشعر من احكام تلتمس سبيلها في موسيقى الالفاظ وحدها . فتحكم للبيت او للقصيدة بالرقة او الانسجام . وهم يضربون خير مثال لذلك شعر البحتري الذي بلغ الذروة في هذا الشأن حتى قالوا فيه قولهم الشهير « البحتري . . . أجاد في سبك اللفظ على المعنى . واراد ان يشعر فغنى » . هذه قطعة واحدة من شعره على سبيل المثال :

* مقدمة لكتاب « الالحان » (مجموعة مختارة من الشعر الحديث) .

ألام على هواك وليس عدلاً … اذا احببت مثلك ان الاما
لقد حرمت من وصلي حلالاً … وقد حللت من هجري حراما
اعيذي في نظرة مستثيب … توخى الاجر او كره الاثاما
تري كبداً محرقة ، وعيناً … مؤرقة ، وقلباً مستهاما

على ان مثل هذا الحكم ان صح من بعض الوجوه في البحتري الذي يغلب عليه – كما نرى – عنصر الغناء . فلا يجب ان نعتمد عليه الاعتماد كله . لانه لا يثبت للتحليل الدقيق . فهو باقتصاره على موسيقى الالفاظ وحدها كعامل اساسي في جمال التعبير يهمل في اللفظ نواحي اخرى اعرق في الرمزية من مجرد الالحان .

وكيف يمكن ان تقوم قيمه الشعر على موسيقى الالفاظ وحدها مع انه لكل لفظة من وراء ذلك – كما يعترف به علم اشتقاق اللغة – آصرة نسب قوية تظهر حيناً وتختفي حيناً بطائفة تجانسها في الاشتقاق من الالفاظ قد يعول عليها الشاعر في الزخرفة والتهويل .

تأمل مثلا قول تأبط شراً في الجاهلية .

وثنوا ... هجروا ثم اسروا … ليلهم ، حتى اذا انجاب حلوا
كل ماض قد تردى بماض … كسنا البرق اذا ما يسل

والشاهد هنا في كلمة « ماض » وما اصبح لها من حسن الوقع وبالغ التأثير . ومثله قول صاحب « الاعاصير » .

الهي ! رد ما لك من أياد … على وطني ورد له الأيادا
خامت على رباه الحسن فذا … وألبست القطين به الحدادا
وما شرف الجبال لساكنيها … وشم إباؤهم خسفت وهادا
اهيب بهم فلا القى سميعاً … كأني المنادى والمنادى
ألا ذوقتهم ألمي فثاروا … فيا رباه ! است أنا البلادا
شبول الارز ! بات الحلم عجزاً … وبعض العجز موت ان تمادى
فكونوا النار تحرق ، او فذي في … عيون البطل ، ان كنتم رمادا

فهذه ابيات اقل ما يقال فيها انها رائعة . ولا تزيد كلماتها الا التهاباً بفضل ما فيها من محسنات البديع . علاوة على ما للكلمات نفسها من دلالة لغوية خاصة كما ترى . فهذه ناحية اخرى لا يجوز التغاضي عنها في رمزية الالفاظ . نهض عليها شعر عصر بكامله هو العصر العباسي الثاني . وكان زعيم هذه النهضة في عصره ابو تمام الذي نكتفي منه هنا بالقطعة التالية .

وطول مقام المرء في الحي مخلق … لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة … الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وان في هذا الشعر لديباجة متجددة لا تخلقها الايام .

هاتان ناحيتان . على ان اللفظة تستطيع فوق ذلك على يد الشاعر ان تنقلنا بمجرد تداعي الصور الذهنية الناشئة عنها كلمح البصر في الاذهان الى احاسيس لا نتبينها بوضوح ولكننا على غموضها نبعث في النفس اشراقاً وروعة . كالبرق اذا جر خيطه موهناً في الآفاق فأحال الليل – طرفة عين – الى نهار . فكأن كل كلمة – من ناحيتها الخاصة – ساحل لمحيط زاخر تنحسر عنه ببطء امواج قوية وبعيدة لفيض من الصور الحية لا تحد . تسبغ على اللفظة بتداعيها الحر ، ما لها تحت معانيها في الافق البعيد من اشعة نفسية وظلال .

ونجد مصداق ذلك في هذه القطعة الجميلة لكثير عزة ، التي وقف منها النقاد حائرين زماناً طويلاً . فلم يستطيعوا تعليل ما فيها من موطن الفتنة والجمال على وجهه الصحيح الا منذ قريب .

ولما قضينا من منى كل حاجة … ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا … ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
اخذنا بأطراف الحديث بيننا … وسالت بأعناق المطي الاباطح

ومثلها قول اسمعيل صبري .

أقصر فؤادي ! فما الذكرى بنافعة … ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمناً … حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

ويقول سيد قطب في هذا الصدد « ان للالفاظ ارواحاً . ووظيفة التعبير الجيد ان يطلق هذه الارواح في جوها الملائم لطبيعتها فتستطيع الايحاء الكامل ... » . فهذه ناحية ثالثة لم يفطن لها النقاد الاقدمون في رمزية الالفاظ . وان حفل الشعر الاموي منها ببدائع الآثار .

ثم ان تحت كل كلمة – من حيث هي لبنة في بناء اللغة – تاريخاً ناماً يوقظه الشاعر بأنفاسه ... كما يقول عبد اللطيف شرارة . اذ ان الكلمات تمت في تاريخ كل امة بسبب قوي الى اخوات لها في آثار الشعراء . فهم هؤلاء قد تناولوها بالصقل على مر العصور . ولعل ألسنتهم هي التي تحس المزاوجة بين الالفاظ من جهة وتوائم بين معانيها من جهة اخرى . بحيث تنطبع الى الابد بطابعهم الخاص . ونرى اثر ذلك جلياً فيما للجاهليين من تشابيه واستعارات اتخذت الى اليوم منحاها الخاص في ادب اللغة . هذا المنحى الذي قد لا يجارينا فيه او يوافقنا عليه اهل اللغات الاخرى وان تشابهت بيننا الاغراض . فكأن اللفظة تصبح من هذه الناحية بحكم تاريخها شحنة من الكهرباء تستطيع بمجرد تناول الشاعر اياها ان تكهرب بماضيها الاجواء . وقد تأثر بذلك الشعر الحديث حتى سمعنا صاحب « الجداول » ينشد .

تعالي نتعاطاها كلون التبر او اسطع
ونسقي النرجس الواشي بقايا الراح في الكاس
فلا يعرف من نحن ولا يبصر ما نصنع
ولا ينقل عند الفجر نجوانا الى الناس

فيلاحظ في القطعة الاشارة الى وشاية النرجس التي يحفل بها

تمر بي كـأنني لم أكن | ثغرك او صدرك او معصمك
لو مر سيف بيننا لم نكن | نعلم هل اجري دمي او دمك

والذي يلفت النظر هنا استعمال كلمتي « السيف » و« الدم » في قطعة غزلية بحتة . وهذا هو موضع العثار في ترجمة الآثار . فانه لا يغني غناء كلمة اخرى مكانها حتى ولو كان لها معناها في المعجم او مدلولها في المجتمع ما لم تستطع هذه ان توقظ في الذهن بمجرد اللمح ، تلك الاجواء - على الاقل - التي ترمز اليها الكلمة الاولى بتاريخ تطورها . فان بيت بشارة ينتقل بذهن القارىء الى المتنبي حيث يقول .

فبات بين تراقينا ، ندفعه | وليس يعلم بالشكوى ولا القبل

والى ما كان قبل المتنبي في البادية من تقاليد مرعية نطق بها العرب في شعرهم . فهذه ناحية رابعة في رمزية الالفاظ كثيراً ما تغافل عنها الادباء المترجمون مع انها اولى منهم بكل تقدير .

ولعله لم يحسن شاعر في لغة الضاد احسان المتنبي في استغلال هذه الناحية من الالفاظ . اذ كان جد موفق في اختيار اللفظ الدال على ما يريد . ولذلك اصبح شعره حافلاً بالامثال . تأمل مثلا قوله :

رماني الدهر بالارزاء حتى | فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام | تكسرت النصال على النصال

او قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان | هو اول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة | بلغت من العلياء كل مكان

وفي هذا البيت الاخير دليل حي على ما للالفاظ من مدلول تاريخي خاص . فان معظم الكتب العصرية تستبدل بكلمة «مرة» (بالكسر) التي لا نشك في استعمال المتنبي اياها كلمة «حرة» نزولاً على رغبات العصر وحاجات اهله، على ما بين الكلمتين من بون شاسع يفرضه اختلاف العصرين . ولكنها « الحرية » التي قال فيها شوقي :

وللحرية الحمراء بـاب | بكـل يد مضرجة يدق

تسوغ للادباء مثل هذا التصرف في بيت المتنبي الخالد .

هذا كله فيما يتعلق باللفظ على انفراده . ونحن الى هنا انما نساير بقصد الايضاح هؤلاء الذين ينظرون الى اللفظ كعنصر قائم بذاته في الشعر بمعزل عن معناه . والا فاللفظة في الشعر - بغض النظر عما يكون من اثر هذا العنصر الذي تشف عنه بدلالتها اللغوية - تؤدي على لسان الشاعر كل ما ذكرنا من مدلول هـذه الرموز الاخرى التي تختلج بها كلها في آن .

البحرين | ابرهيم العريض

واذا .. ؟

لموريس ماترلنك

☆

واذا ما عاد يوماً
فماذا يجب ان اقول له
- قولي له انني انتظرته
الى ان ادركني الموت ...

***

واذا سألني ايضاً
دون ان يعرفني
- حدثيه كأنك اخته
وهو سيتألم ...

***

واذا طلب اين انت
ماذا يجب ان اجيبه
- اعطيه خاتمي الذهبي
دون ان تقولي له شيئاً ..

***

واذا اراد ان يعرف
لماذا هي الغرفة مقفرة
- أريه الصباح الخابي
والباب المفتوح ...

***

واذا سألني عندئذ
ماذا كان منك في آخر لحظة
- قولي له انني ابتسمت
خشية ان يبكي ...

ترجمة | حفيظ الامام

الطفل الضال

للاديب الهندي ملك راج اناند

ترجمة وديع فلسطين

☆

كان عيداً للربيع ...

ومن بين الظلال التي تكسو الازقة والترع برزت جمهرة كبيرة شاعت البهجة فيها وارتدى أفرادها حللًا جديدة فكان منظرهم شبيهاً بسرب من الارانب بيض الفراء خرج من حجوره الى حيث تكسو الشمس الفضية البطاح بأشعتها كأنها نهر ضاق بمائه ففاض .

وكان بعضهم راجلًا، وبعضهم يمتطي صهوة الجياد ومن دون هؤلاء وهؤلاء جماعات امام جالسة في هوادج ومحفات من الخيزران او مقتعدة في مركبات تجرها الثيران .

ومرق طفل صغير من بين ساقي ابيه مفعماً بالحياة والمرح طافحاً بالبهجة كالصباح المشرق البهيج الباسم الثغر ، ذلك الصباح الذي يزجي التحيات جهاراً ويدعو الناس بغير حياء الى الخروج الى الحقول التي رصعت جنباتها بالزهر، تتصاعد منها انغام موسيقية شجية .

وتخلف الصبي في الطريق، فقد استرعت انتباهه لعب مدلاة في الحوانيت مع امتداد الطريق . فناداه والده ان «أسرع ، اسرع» .

فهرول صوب والديه، اذ انصاعت ساقاه لندائهما، وكانت عيناه شاخصتين الى اللعب المدلاة . ولما دنا من المكان الذي وقف فيه والداه لينتظراه ، لم يستطع ان يكبح الرغبة الكامنة في قلبه على الرغم من انه كان يرى في عينيهما دلائل الرفض والاباء .

وقال الطفل يناشد والديه : « اريد هذه اللعبة » .

فحملق والده بعينين حمراوين جرياً على عادته الاستبدادية ، اما الام فقد تذرعت بالحنان واعتصمت بالعطف ومدت اصبعها اليه ليمسك به قائلة : « بني انظر امامك » .

ولكن سخط الصبي المكظوم لعدم تلبية مشيئته، وبدرت منه كلمة « ماما » مختلطة بخلجة من البكاء ، ولكن عينيه التواقتين سرعان ما أخذتا بما شاهدتاه امامهما، فكفتا عن النحيب فقد خلف ثلاثتهم الطريق المترب الذي كانوا يذرعونه ، ثم تحولوا الى الشمال ، وساروا في درب مطروق بين المروج .

وكان الحقل مبثوثاً بزهر الخردل ، اصفر الصفحة كأن ذهباً مصهوراً يغطيه اميالاً في إثر اميال من الارض المستوية ، بل كأنه جدول من نور اصفر يبرق ويخبو كلما هبت عاصفة عارمة من الريح . وتتسع صفحة هذا الجدول في بعض البقاع فتنسرح في ضوء الشمس الى الافق البعيد كأنه اوقيانوس من ضياء الذهب . وفي احد الجوانب البعيدة ، تراءت جمهرة من الدور المتواضعة المشيدة جدرانها باللبن، ولم تسترع الابصار الا بأمرين هما : تهافت الرجال والنساء من



The Lost Child - by Mulk Raj Anand.

المدثرين بأردية صفر ، وتصاعد اصوات الصفير والضجيج والصريف والهدير والطنين من هذه الطائفة ، ترسلها الريح عبر المروج الى السماء المخضبة بالزرقة كأنها اصوات ساحر نشأت عن ضحكة جنونية .

وتطلع الطفل الى ابيه ، وقد أشرب بنشوة الغبطة والاعجاب بهذا المجد الرحيب ، واحس انهما بدورهما يقدمان البينة على هذا الفرح الطاغي في سماتهما ، فانحرف عن الدرب الى الحقل مباشرة واثباً كالجدي الصغير ، وقدماه تسيران على نغم الريح المتقلبة التي كانت تهب وقد اختلطت بأريج الزهر المنبعث من الحقول النائية .

وكانت زمرة من الذباب الهدي تطير وتلغط بأجنحتها الارجوانية الشفيفة وتطارد نحلة سوداء تبحث عن رحيق عذب تمتصه من قلب الزهر . فتبعها الطفل يرقبها في الجو ويشيعها بنظراته حتى طوت احداها جناحيها لتستريح . فحاول الطفل ان يمسكها بيده . وعنّ لنحلة سوداء اتسمت بالشجاعة ان تجرّب الصبي فحوّمت حول اذنه ، وكادت تستقر على شفتيه لولا ان ندّ عن امه نداء تحذير :

— « هلم يا بني ، هلم ! . . سر في الدرب » .

فهرول صوب والديه جذلان فرحاً ، وسار امامهما هويناً ما ، غير انه سرعان ما تخلف عن الركب حين اجتذبته بعض الحشرات الدقيقة والديدان التي كان يشهدها فاطال به الطريق وهي تخرج من مآويها الى ضوء الشمس تلهو وتمرح .

فدعاه والده « هلم ، ايها الصبي هلم » . وكانا قد استظلا بخميلة دانية من جدار ، فهرع الصبي اليهما .

وكانت الى جوارهم شجرة بنيان شامخة فردت اذرعها القوية لتستظل تحتها اشجار اخرى باسقة ، وتلقي ظلالها عبر فرش مبسوطة من زهر ذهبي وارجواني ، فكانت الشجرة كالجدة العجوز لفت بحزرتها صغاراً .

ومن تلقاء نفسها اعربت الازهار المستحية عن اعجابها بالشمس التي تبدو اشعتها من بين ظلال شجر القهرمان ، وهو الشجر الذي يدفع عن الزهر لظى الحر . واختلط العطر العبق المنبعث من قلب الورود بالنسيم البليل الذي كان يجيء ويروح بين هنيهة واخرى .

وحين دخل الطفل الخميلة ، تساقطت عليه ارتال من اوراق الورد كأنه رذاذ مطر ، فنسي والديه ، وبدأ يجمع الاوراق المتناثرة . وبينما هو منصرف الى ساواه سمع هديل حمامة فركض الى والديه يصيح فيهما « حمامة ! حمامة ! » وانفرط من يديه عقد الزهر الذي التقطه ، فبدت على وجهيهما سمات الغضب ، ولكن موجة الحب ما برحت ان محت دلائل الضجر .

وكان الطفل قد عاد يلهو عند شجرة البنيان ، فناداه ابوه « هلم ايها الصبي هلم » . ولكي لا يخطئاه ، انحرفا الى الطريق الضخم الذي يفضي الى حلبة السوق من بين غمار حقول الخردل .

وبينما هم يدنون من القرية ، ترادفت امام بصر الصبي دروب كثيرة عامرة بجمهرة من القوم وجهتها ساحة السوق . فأحس احساساً مباغتاً برهبته وافتتانه بالخليط من الصور في عالم هو مشرف على دخوله .

وفي ركن منزو للمدخل ، جلس بائع حلوى ينادي على ما عنده من سلع ، وتزاحم حول مائدته جمع من السابلة يتأملون صنوف الحلوى التي خضبت بالالوان ، وصنعت منها اشكال شتى وزينت بالمذهب والمفضض من الورق . فأجال الصبي بصره في اصناف الحلوى ، وسال لعابه لنوع أثير لديه ولم يتمالك ان تمتم بوادة : « اريد شيئاً من هذا الصنف » . ولكنه كان يعلم سلفاً ان طلبه لن يجاب لان والديه يتهمانه بالنهم . فسار دون ان ينتظر منهما جواباً .

وصاح بائع زهر « اكاليل الجمال . . . اكاليل الجاذبية » . فأحس الصبي بأنه منجذب عن غير وعي وراء العطر العبق الذي حمله اليه جناحا النسيم المنعش ، وتقدم الى سلته حيث نُسِّق الزهر وتمتم وفمه نصف مغلق « أروم ذاك الاكليل » ولكنه ادرك قبلاً ان والديه سيأبيان ابتياع طاقة له قائلين : انه رخيص ، فمضى في سبيله لا ينتظر رداً .

ووقف رجل يمسك بيديه خيوط بالونات صفر وحمر وخضر وارجوانية اطلق لها العنان فحلقت في الفضاء . وفغر الصبي فاه اعجاباً بقوس السحاب الجديد المنبعث من الوان تلك البالونات الزاهية وخيمت عليه رغبة دافقة في ان يمتلك هذا الكنز بأسره . غير انه عرف ان والديه سيقولان انه ارشد من ان يلهو بمثل هذه اللعب ، فحثّ الخطى .

وهذا مشعوذ وضع على فمه مزماراً ينفخ فيه حتاً لحية لفت جسمها في داخل سلة ، فأبرزت رأسها في انحناءة شكر كعنق الأوزة العراقية ، بينما تسللت الانغام الموسيقية الى اذنيها الخفيتين

كأنها خرير ماء هادىء يهوي من مسقط ماء قليل الانحدار. فتقدم الصبي الى المشعوذ، بيد انه وقد عرف ان والديه نهياه عن الاصغاء لمثل هذه الموسيقى الناشزة، استطرد سيره.

وثمة جمع حاشد فيه رجال ونساء واطفال يدأبون على حركات ورقصات دائرية يصرخون خلالها ويصيحون ويضحكون ويهزلون فراقبهم الصبي باهتمام وهم يذرعون الحلبة ويدورون فيها، وبدا على وجهه شبح ابتسامة، وتابعت عيناه الراقصين وشفتاه منفرجتان دهشة حتى احس انه يسايرهم في مرحهم. وكانت حلقة الراقصين منتشية بالحماسة والشدة والعنف، ولكنها بدأت تميل الى التناقص والخمود. وتأمل الصبي، وهو مأخوذ واصبعه بين شفتيه، حلقة الرقص وهي تهدأ وتخبو. وقبل ان يقهر حبه الدافق للمرح والرقص بفعل ماادأب فيه والداه من انكار كل شيء عليه، قال بشجاعة «اريد ان ادخل الحلبة، فهباني ذلك يا ابي ويا امي».

ولم يكن لسؤاله جواب. وتحول ببصره الى والديه، ولكنه لم يجدهما، فقد سبقاه. ونظر الى الناحية الاخرى، فلم يتبينهما. واجال عينيه خلفه فلم يعثر لهما على اثر.

فانفلتت من حلقه الجاف صيحة قوية عميقة، وانتابت بدنه هزة مباغتة، فهام على وجهه يجري هنا وهناك منادياً «ابي، امي». وانهمرت العبرات من عينيه ثقيلة غزيرة، واتشح وجهه الوردي بالذعر والهلع، ومسه خوف شديد فركض الى ناحية، ثم ركض الى ناحية اخرى، هنا، وهناك.. ولم يدع اتجاهاً الا سلكه، لا يدري الى اين يمضي. وكان يبكي منادياً «ابي، امي» وانفاسه تختنق في صدره، وبدنه يرجف، وحلقه بلله ما ابتلعه من لعابه. وحل غطاء رأسه الاصفر، واصبحت ملابسه التي بللها العرق ملطخة بالوحل، واضحى الاطار الخفيف الذي كان يحمله في يده ثقيلاً كأنه كتلة من الرصاص.

وبعد ما ركض هنا وهناك كأنه محموم، وقف مغلوباً على امره، واختنقت صيحاته. وعن قرب لمح الخضرة المنبسطة وفيها رجال ونساء يتحدثون. وحاول ان يتأمل باهتمام مجموعات الملابس الصفر التي يتدثر بها بعض اولئك القوم، ولكنه لم يعثر بينهم على اثر لأبيه وامه. وشهد الناس يضحكون ويتكلمون لغير ما سبب الا الضحك والكلام. فهرول في الركض الى المزار الذي تجمع حوله القوم، وكان كل شبر في تلك المنطقة حاشداً بالناس، غير انه مضى بين سوق الواقفين وهو يتنهد قائلاً «امي، ابي».

ولكن الناس تكاثروا وتكاثفوا حول المعبد، وتدافعوا بالمناكب وكل مشغول بنفسه عن سواه. فناضل الصبي ليشق بين سوقهم طريقاً، فكان يُركل من امام ومن وراء بأقدامهم الضخمة، واوشكت ان تدوسه النعال لولا انه صرخ بأعلى صوته «ابي، امي». فسمع رجل بين الجمع الغفير نحيبه ومال اليه بصعوبة ورفعه على ذراعيه.

وسأله الرجل وهو يشق طريقه متخطياً الكتل المتراصة الى الخارج: «ماذا أتى بك الى هنا... واين من انت؟».

ولم يزد الصبي على ان بكى بمرارة شديدة وصرخ «اريد امي.. اريد ابي».

وحاول الرجل ان يهدىء من روعه، فحمله ليريه حلقة الرقص واللهو وقال له: «اتريد ان تركب هذا الجواد؟».

ولكن حلق الصبي مزقته آلاف من التنهدات ولم يفعل سوى انه صاح «اريد امي.. اريد ابي».

فاتجه به الرجل الى حيث المشعوذ وهو واقف بزماره يداعب الكوبرا الراقصة وناشد الصبي: «اصغ لهذه الموسيقى الجميلة». غير ان الصبي وضع اصبعيه في اذنيه وصاح بأقصى ما يستطيع: «اريد امي... اريد ابي».

وساقه الرجل الى بائع البالونات ظناً منه ان بريقها يجتذب اهتمام الصبي ويهدىء من روعه، وقال له يريد اقناعه: «اتروم بالونة مزدانة بألوان كقوس السحاب؟».

ولكن الصبي نحّى بصره عن البالونات وصاح متنهداً: «اريد امي... اريد ابي».

وحمله الرجل — وهو لا يزال حريصاً على اسعاده — الى مدخل السوق حيث وقف بائع الورد وقال له: «انظر... اتستطيع ان تشم رائحة ذلك الزهر الجميل؟ اتريد اكليلاً تطوق به جيدك؟».

فسدّ الطفل انفه مبعداً اياه عن السلة وردد: «اريد امي.. اريد ابي».

وحسب الرجل انه يستطيع تعزية الصبي بهدية من الحلوى فأخذه الى مائدة الحلواني وسأله «اي نوع تريده منها؟».

فلم يكن من الصبي الا ان حوّل وجهه بعيداً عن حانوت الحلوى ولم يزد على صياحه «اريد امي... اريد ابي».

القاهرة — وديع فلسطين

التوازن النفسي

بقلم الدكتور ابو مدين الشافعي

☆

كانت معلوماتنا عن النفس مبهمة لا نعرف عنها الا في حدود ما أشارت اليه المذاهب الفلسفية والدينية ، وحاول قوم اخضاعها للدراسة الطبية فوحدوا بينها وبين المظاهر الجسمية ولقد بلغ الامر ببعض الباحثين الى إنكار الحقيقة النفسية وادماج النشاط النفسي في النشاط الجسمي .

لقد حار علماء وظائف الاعضاء في تفسير بعض المظاهر الحيوية وظلت أبحاثهم مبتورة من حيث الفهم التام لسلوك الانسان، حين اقتصر الطب على فهم أجزاء الجسم مستقلة على ضوء ما انتهى اليه من معارف طبيعية وكيميائية . ولذلك نراه في حالة اضطراب هذه الاجزاء يلجأ في اغلب الاحيان الى العوامل الكيميائية والطبيعية ليرجع للأجزاء المصابة تركيبها الاصلي .

وهناك أمراض جزئية في جسم الانسان لا تقبل الشفاء بالطرق الخارجية فلا تؤثر فيها التركيبات الكيميائية والوسائل الطبيعية مثل الكهرباء وغيرها . ووجهت هذه الحالات الاذهان الى علل أخرى هي أبعد من الاصابة التركيبية المحلية في العضو ، فهناك آثار التركيب الكلي للقوى الانسانية على اختلاف انواعها ومظاهرها .

ويحق لنا أن نستغرب من دهشة بعض الناس عندما يذكر امامهم أن عدداً كبيراً من إصابات القرحة المعدية يرجع الى أسباب نفسية ، كما ان أغلب المختصين في الامراض النفسية يصعب عليهم الايمان برجوع الاضطراب النفسي الى اضطراب جسمي .

ويوجد قوم في مختلف أنحاء العالم يقولون بالتحليل النفسي كوسيلة لعلاج الاضطرابات النفسية وما ينتج عنها من شذوذ ويحاول آخرون علاج نفس الامراض بواسطة الحقن والاقراص .

وعندي وثيقة هامة تدل على ان أسباب بعض الامراض العامة في الجسم لا تزال مجهولة لدى الكثيرين من الاطباء . وأنهم لا يستندون في علاجهم على فهم واضح لأسس التوازن النفسي .

أذكر حالة فتاة فرنسية اضطرتها الظروف الى ان تعيش وحيدة تعوّل على مجهودها الشخصي لتعيش ، وذكرت انها بلغت في الخامسة عشرة من عمرها فاندفعت الى العادة السرية باسراف ، ونتج عن ذلك (حسب شهادتها) اضطراب في العادة ، واستمر كفاحها الجنسي مع اضطراب وانحراف . وكانت الناحية الجنسية مسيطرة على هذه الفتاة لان الاختلاط وحرية الاتصال بالشبان كانت تثير فيها الميول الجنسية بصفة دائمة .

فاذا حللنا هذه الحالة وجدناها اتجاهاً مستمراً نحو فعل لم يتم اذ صرحت الفتاة انها كانت مع تساهلها تحاول ان تحافظ على شرفها .

اذن هناك اتجاه لفعل لم يتم . وطال كبت هذا الاتجاه محوّلاً عن طريقه الطبيعي . ونلاحظ ان أي توقف عن القيام بفعل دعت الحاجة الى القيام به يحدث اضطراباً كبيراً في السلوك وفي الشخصية كلها ، وما علينا الا أن نتتبع أحوالنا النفسية بعد امتناعنا عن القيام بفعل ضروري . فان ذلك يحدث انفعالاً وكأن العرب القدامى باستعمالهم كلمة الانفعال للدلالة على حالات اضطراب التوازن النفسي فكروا في الصلة بين الفعل والانفعال .

هناك أمثلة كثيرة نشاهدها يومياً في الحياة العامة تثبت لنا ان الامتناع عن القيام بفعل في الخارج ينقلب الى نوع من الاضطراب الداخلي . ويحدث التوقف حالة من التوتر يحاول الشخص ان يقضي عليها بالحديث، ونجد سراً في التعبير العامي اللبناني عن الحديث بكلمة « حاكى » مشتقة من الاصل العربي حاكى يحاكي بمعنى قلّد يقلد ، فكأن الحديث تقليد يعوض عن الفعل . فاللفظ ينوب عن الفعل .

ولذلك نلاحظ ان الكثير من الافعال يفقد الشخص رغبة القيام بها اذا هو عبر عنها بالحديث ويحرص الكثير من الناس على عدم التحدث بأغراضهم حتى تتم في صورة افعال كاملة .

وهناك أفعال حشوية داخلية لا ارادية يحدث تعطيلها اضطراباً عاماً في التوازن النفسي . ومن أهم الافعال اللاإرادية الحشوية عملية الهضم بما فيها من افرازات المعدة وتقلصات عضلاتها وحركة الامعاء لمرور فضلات الأكل بعد امتصاص خلاصات الدم منها .

ونلاحظ ان أقل اضطراب خارجي في الوسط الطبيعي او

الاجتماعي يحدث اضطراباً في العمليات الهضمية ويتطور ذلك الى اضطرابات جسمية ينتج عنها ضعف الجسم وتعرضه للتعب والارهاق.

وقد يبدأ الاضطراب في سن الشباب بعد ما تبدأ الغدد التناسلية تفرز وتمتص كمية من الغذاء كانت تصرف في تقوية الأعصاب. ان افراز الغدد التناسلية يحدث تغيراً كبيراً في توزيع الغذاء، ينشأ عنه تغير في توزيع النشاط فيشعر الشاب بهبوط تساوره خلاله احلام اليقظة. ويظهر ذلك واضحاً في النفور من المواد التي تتطلب تركيزاً انتباهياً قوياً مثل المواد الرياضية والحسابية — وتتفاقم الحالة الصحية عند الشبان الذين يفرطون في غذائهم فتتعرض الحالة الجسمية الى الاضطراب ويؤدي ذلك الى اختلال التوازن النفسي.

وقد تكون اسباب اضطراب التوازن النفسي اجتماعية، كما هو مشاهد في فقد قريب في الاسرة فيحدث الفقد من طريق الفراق المؤقت الطويل او الموت، اضطراباً قوياً في الشخصية. ونشاهد في بعض الاحيان الشخص يتألم ويعبر عن آلامه بصراخ كما لو أنه أوذي في جسمه. وقد تترك آلام الفراق آثاراً باقية في الجسم وفي النفس ويظل الشخص يشعر بالاضطراب في صورة خوف وضعف. وهناك اشخاص يصل بهم التأثر والاضطراب النفسي والجسمي الى حد الموت.

وتألم الانسانية اكثر من الاضطرابات في التوازن النفسي التي تقضي على كل صحة جسمية وكل مكانة اجتماعية. ويكون الاضطراب في بعض الاحيان بسيطاً ولكنه لا يلبث ان يتسع وتتفاقم آثاره اذ يؤدي الى انقطاع النوم واضطراب الهضم. وكان الاطباء في كثير من الاحيان يتجهون في علاجهم الى وقف الارق بالاقراص المنومة فيشعر الشخص بالهبوط والتخدير وينام نوماً صناعياً لا يحدث له اية راحة بل يصحو الشخص شاعراً بتعب ويكون في حال شبيهة بحال النائم الذي يحلم أحلاماً مزعجة فتكثر الافكار المخيفة والحركات الطائشة.

فالنوم الطبيعي احسن وسيلة لارجاع التوازن النفسي ولا يكون من السهل في بعض الاحيان حمل الشخص على النوم الطبيعي وتلجأ المستشفيات الحديثة في العالم كله الى تنويم مرضاها بالاقراص الكيميائية. وشاهدت أن أغلب الاضطرابات الانفعالية تتلاشى بعد انقطاع المرضى عن تناول المواد المخدرة وحملهم على النوم الطبيعي بالطريق الطبيعي، وهو السأم.

ان الصدمات النفسية الناشئة عن الادراك القوي مثل الاصوات المزعجة والأضواء الساطعة تدل على ان الادراك طريق يؤثر في الاعصاب ويترك في تركيبها آثاراً دائمة ينتج عنها اضطراب في التوازن النفسي. وقد تركت الغارات الجوية في كل انحاء العالم اختلالاً في الاعصاب ولا سيما لدى الاطفال. وكان كل ذلك عن طريق الادراك القوي.

لهذا السبب يمكن استعمال الادراك كطريق لتنظيم التركيب العصبي واعادة التوازن النفسي. ويقوم الايقاع بدور كبير في اعادة هذا التوازن. وذلك لان الانفعال والصدمات النفسية تؤثر اول ما تؤثر على ايقاع التنفس وضربات القلب. وبما أن كل فحص تشريحي دل على ان الاشخاص المصابين باختلال في توازنهم النفسي لا يظهر عليهم اي عطب جسمي فلا شك ان الاضطراب ناشيء عن تغير التركيب الكلي للجهاز العصبي سواء أكان في الوصلات (Synapses) او في صلة القوس الحسية بالقوس الحركية او الحبال الصاعدة بالحبال الهابطة، ولذلك لا يكون العلاج في مثل هذه الحالات الا بارجاع الارتباط الضروري بين طريق الادراك وطريق الحركة.

واحسن طريقة لارجاع هذا الترابط هو تعريض الشخص الى سماع ايقاع مصحوب بايقاع ضوئي آخر — ويميل كل ادراك للايقاع الى الظهور في صورة حركة، ويمكن بعث الشخص على القيام بحركات ايقاعية مصاحبة لمدركات ايقاعية تزيد وتنقص في السرعة ويطلب من الشخص مسايرتها فيبعث ذلك الشخص على ان يخطو اول خطوة في التكيف.

ان الاقناع بتغيير السلوك لا يساعد المريض على تغيير وجهة افعاله ولا يمكن للافكار المجردة أن تؤثر على التركيب الكلي للاعصاب ولكن محاولة الربط بين الاعصاب تساعد الشخص على تصريف افعاله وتجعله قادراً على التحكم فيها.

ويمكننا بذلك ان نفكر بتفادي آثار الانفعال وقت الصدمة فنجعل الشخص يدرك ايقاعاً بطريقة بصرية او سمعية ويمكننا ان نضيف الى ذلك الايقاع اللمسي كالذي تستعمله الام مع ابنها لترجع له هدوءه بعد الاضطراب. ولا شك في ان ذلك يساعد الجسم على المحافظة بتماسك اعصابه وارتباط طرقه الصاعدة والهابطة فيبعد كل اضطراب جسمي ويضمن رجوع التوازن النفسي بسرعة.

وعلى العالم النفسي ان يجد نوع الايقاع اللازم لكل شخص حسب حالته النفسية والجسمية وقد أقبل الناس من تلقاء انفسهم على الايقاع مخففاً بألحان في صورة قطع موسيقية مختلفة حتى لا يؤدي بهم الايقاع المجرد الى السأم والى الهبوط في النشاط النفسي.

ابو مدين الشافعي — بيت المغرب — القاهرة



عذلتني على الشموخ

الى لائمة ..

●

هل تجاهلتِ ، أم جهاتِ بلادي ؟ … هي مسرى الشذا ومغدى الشوادي

قمّةٌ فوق ساعدِ اليمّ تنمو … ملء عين السما وحضن الوهادي

يُورقُ العزُّ في ذراها ، وتجري … فوق خضر الآمال بيضُ الأيادي

كست الأرضَ فضلها ، وهي ليست … تكتسي منّةً لغير الغوادي

***

عذلتني على الشموخ كأني … لم تلدني شوامخ الأطواد

أنبشُ النار من تراب جدودي … فأغذّي بلفحها أحفادي

كلما رمتُ هداةً أضرمتني … في ذرى المجد نفخة الحسّاد

جمرةٌ من مجامر الله حاشا … أن يغطّى على اللهيب رمادي

***

أطلقتني يد الطبيعة فيها … أتغنى بهضبها والمهاد

راحماً كلَّ طائرٍ علّمته … قسوة القيد رقّة الإنشاد

مائيَ اللؤلؤ المذاب وشدوي … فوق فرع الزمرّد الميّاد

ما تلوّنتُ في هوايَ ولا لوّنتُ شعري بغير لون بلادي

وأنا ابنُ الجبال تشمخ في خُلقي … وتُرغي سيولها في احتشادي

رفعتني على سواعدها الخضر … وأدنت من السماء وسادي

في فمي صوتها ، ونورُ ضحاها … في جبيني ، وخصبها في فؤادي !!

فارس سعد

الاسلوب الفني والطابع الشخصي في الادب المهجري

بقلم عيسى ابرهيم الناعوري

☆

من ابرز ما يتميز به كبار ادباء المهجر ان لكل منهم طابعاً خاصاً يمتاز بيسر وسهولة عن طوابع الآخرين، وتظهر فيه شخصية صاحبة قوية بخصائصها على الرغم من وحدة المنبع ووحدة الغاية لدى الاكثرين.

فأدباء المهجر يغترفون من مناهل واحدة – في الغالب – ويهدفون الى غاية واحدة، او غايات متقاربة. فهم يغترفون من داخلهم اولاً، ويتأثرون بما يحيط بهم ثانياً. يشعرون بالطبيعة شعوراً عميقاً، ويحنون الى اوطانهم حنيناً جامحاً، ويبحثون عن حقائق الحياة الكبرى بحثاً جاهداً. يفرحون ويتألمون، يشكون ويهتدون، يحبون ويبغضون، يثورون ويسكنون. وبعبارة اخرى يغترفون من معين الحياة الواسع مادة لأقلامهم. واما هدفهم الذي يعملون له باستمرار واخلاص فهو خلق ادب حر قوي يعنى بالمعاني والافكار الكبيرة، ولا يتقيد بالصغائر والتفاهات التي هي قيود تكبل اجنحته القوية دون التحليق والسمو، وأذرعه دون ان تنفتح لاحتضان الحياة بأسرها. ومن هنا كان سر ذيوعه وتأثيره في النفوس وعلى الاقلام. لهذه الغاية السامية عمل اعضاء « الرابطة القلمية » وغيرهم في اميركا الشمالية، ولهذه الغاية عينها عمل المتفوقون من اعضاء « العصبة الاندلسية » وغيرها في اميركا الجنوبية.

ولكن بقدر اشتراك هؤلاء الادباء جميعهم في الاغتراف من تلك المناهل الواحدة، والسعي الى هذه الغاية الواحدة، تختلف شخصياتهم الادبية، بحيث يظهر كل منهم مستقلاً عن الآخرين بطابعه الخاص في التفكير او في التعبير، او في كليهما معاً. فطابع جبران، مثلاً، غير طابع الريحاني، او نعيمة، او ابي ماضي. وطابع فوزي المعلوف غير طابع اخيه شفيق، او نعمة قازان، او القروي. وكذلك قل في طابع كل من الآخرين على حدة. وفي الواقع ان سمة التميز في الشخصية المتفوقة انما هي ميزة العظماء وحدهم في كل ناحية.

وتميز الطابع الادبي او استقلاله قد انتقل الى الشرق، فكثر بين كتابه الادباء المتميزون بطوابعهم الخاصة وشخصياتهم المستقلة.

اما قبل ان يذيع الادب المهجري في الشرق، ويتأثر الادباء بروحه الحرة فقد كنا نرى اكثر الادباء يتنافسون في الغالب على تقليد الاساليب البيانية والبديعية العتيقة، ليبنوا شخصياتهم الادبية على شخصيات سابقة معروفة، لانها في اعتقادهم قد اثبتت صلاحيتها منذ زمن بعيد، فتأتي كتاباتهم على نمط واحد او انماط متقاربة مهما اختلفت اذواقهم ومشاربهم.

والواقع ان تميز الطابع الادبي انما ينتج عن انطلاق الكاتب على سجيته، ومحاولته ان لا يكون غير نفسه. فالاديب الذي يريد ان يكون متميزاً بطابعه الخاص عليه ان يجعل من قلمه ترجماناً صادقاً صريحاً لقلبه وعقله. واما الذي يحرص على مجاراة غيره فلن يأتي بجديد، لان التقليد يطمس شخصيته ويطغى على قلمه وروحه.

وقد نكون في حاجة الى بعض الشواهد على تميز الطوابع الادبية لدى المهجريين، فلذلك نرى ان نستشهد بعدد قليل من الشخصيات المهجرية البارزة، لان المجال لا يتسع للجميع. ونترك للقارىء ان يقابل بينها وان يرجع الى الآخرين ليستخلص بنفسه خصائصهم الادبية الشخصية. ولكن قبل كل شيء لا بد من ان نذكر القارىء بأنه قد لا يجد شيئاً جديداً في الوقت الحاضر في ما يعرض عليه، لانه اعتاد على رؤية مثله في ما يكتبه الكتاب ولكن عليه ان لا ينسى ان الاساليب العربية الحديثة كلها، انما هي وليدة الاساليب المهجرية وربيبتها، فهي التي شقت لها السبيل الى الحياة، والا فما ادرانا ما كان يمكن ان يكون من امر اساليبنا الكتابية لولا ذلك، فالاساليب والطوابع المهجرية كانت

جديدة ومتميزة في حينها ، ثم انتشرت وكثر تلاميذها ومقلدوها في الشرق ، وبعضها لا يزال حتى الآن حافظاً جدته وتميزه .

ولنأخذ جبران اولاً ، فقد كان اسبق المهجريين الى الظهور ، واسبقهم الى التأثير في الادب العربي الحديث باسلوبه الجديد في التعبير . فقد بهر العالم العربي بخيالاته الجميلة واستعاراته الجديدة المدهشة ، وبيانه المترقرق بابسط الالفاظ واعذبها ، واوقعها في النفوس بما ينطوي تحتها في الغالب من روح ثائرة متمردة .

ولا بد من ان نذكر هنـا ان جبران كان اكثر المهجريين تنويعاً في اساليبه الكتـابية . فبينما هو في « دمعة وابتسامة » «والاجنحة المتكسرة »يخاطب الارواح والقلوب بلغته الوجدانية الرقيقة المتسلسلة ، الغنية بالصور والالوان الشعرية الجميلة ، تجده في « المجنون » و«السابق » مثلاً حكيماً يخاطب العقول بالامثـال . وفي « آلهة الارض » يتحدث بالرموز ، وفي « المواكب » يتحدث بطريقة الحوار التمثيلي ، وفي « النبي » نجده معلمـاً ومرشداً ، يخاطب الناس بلغة فيها جانب للضمير وللروح وللعقل ، وفيهـا احيانا تعابير رمزية قد يلتبس معناها على الكثيرين،ولكنها برغم رمزيتها تترك في روح القارى،شعوراً قريباً بجمال اسلوبها وصورها، وبجسن وقعها الشعري .

والغريب في هذا ان جبران كان فيهذه الاساليب المتنوعة هو جبران الفنان الاصيل القوي الشخصية في فنه ، والمتميز بطابعه الادبي عن كل اديب آخر . ذلك لان روحه الثائرة المتمردة ، من جهة ، على كل التقاليد والشرائع الارضية ، وكل القائمين على تنفيذهـا ، والرحيمة النبيلة ، من جهة اخرى ، حتى ترتبط برباط المحبة الوثقى بالانسانية كلهـا ، هي التي كانت تملي عليه وتوجه قلمه ايا كان الاسلوب الذي يكتب به . ومن هنا ينتفي العجب من ان نعد جبران ذا طابع ادبي خاص،مع تنوع اساليبه الكتابية، فهذه الاساليب كلها هي اساليبه ، وهو الذي استحدثها في الادب العربي ، وجعل الرابط بينها جميعاً جمال الالفـاظ ورشاقة التعبير ، وروعة الصور الخيـالية الملونة ، وبكلمة اخرى الاسلوب الفني الجميل . فجبران الذي يقول في « الاجنحة المتكسرة » مثلاً:« ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمـال النفس مشفوعاً بجمال الجسد ، هي حقيقة ظاهرة نفهمها بالمحبة ، ونلمسها بالطهر ، وعندما نحـاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس »، هو نفسه القـائل في « دمعة وابتسامة »: « كنت بالامس كلمة صامتة في خاطر الليالي فاصبحت اغنية مفرحة على ألسن الايام . وقد تم هذا كله في دقيقة واحدة مؤلفة مـن نظرة ، وكلمة ، وتنهدة ، وقبلة » والقائل في « المواكب » :

لم أجد في الغاب فرقاً — بين نفس وجسد
فالهوا مـاء تهادى — والندى ماء رقد
والشذا زهر تمادى — والثرى زهر جمد
وظلال الحور حور — ظنّ ليلًا فرقد

وهو نفسه القائل في « النبي » ايضاً: « ان الريح لا تخـاطب السنديانة الجبارة بلهجة احلى من اللهجة التي تخاطب بها احقر اعشاب الارض . والعظيم انما هو ذلك الذي يحوّل هزيم الريح الى انشودة جميلة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة . »

فالروح واحدة ، والتعبير الفني واحد ، ومنهما معاً يتألف الطابع الشخصي في الادب .

وما دمنا في حديث الاسلوب الفني نود ان نقرر هنـا ان المهجريين قد خرجوا عن الطريقة القديمة في الفهم الفني التي كانت تعتقد ان الفن كله هو في الرجوع الى قواعد البديع والبيان وما فيهما من جناس وطباق وتورية واستعارة وغيرهـا ، وبخروجهم اطلقوا لأخيلتهم العنان، فحلقت حيث شاء لها التحليق، بينما ظلت قواعد البديع والبيان القديمة في حضيض الجمود .

ونقطة ثانية لا بد من ذكرهـا ، وهي ان اكثر المهجريين المبدعين لم يكونوا يهتمون بأن يجعلوا فرقاً بـين لغة الشعر ولغة النثر ، لان لغتهم كانت دائماً موشـاة بألطف التعابير والصور والخيالات التي يصبح معها النثر شعراً جميلًا ذا رنين ساحر. ولذلك نرى مثلًا لغة جبران ولغة ميخائيل نعيمة في النثر همـا عينهما في الشعر ايضاً ، وهما في الحالتين جميلتان في تعابيرهما الفنية الشعرية. فالشعر والنثر عندهما هما حالتان من حالات الكتابة ، او فنّان من فنون التعبير ، عـلى ان تكون اللغة المستعملة دائماً لغة بسيطة جميلة ، تدل كل لفظة منها على معناها بقوة وتترك في نفس قارئها رنيناً عذباً . ومثل هذا الفهم نجده حينا نطالع شعر ايليـا ابو ماضي ، ونسيب عريضة،واخوانهما من شعراء الرابطة القلمية مثلاً، وشعر الكثيرين ولكن ليس الجميع ، من شعراء المهجر الجنوبي. خذ مثلًا نعيمة فهل تجد فرقاً بين لغته اذ يقول في شعره :

اخي ، ان ضجّ بعد الحرب غربي باعمالـه
وقدّس ذكر من ماتوا ، وعظّم بطش ابطاله
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلي ، بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا

ولغته اذ يقول في نثره :

« ها انتم تتقون من بينكم افراداً ، فتخلعون على البعض جبّة الفخامة وعلى الآخر المطوقة ، وعلى الثالث السمادة ، فكأن من بقي منكم ليسوا الا خشارة الحياة . وهكذا تسكنون الذل في قلوبكم ، وشفاهكم تطلب الرفعة ، وتبنون اعشاشاً للعبودية في ارواحكم وألسنتكم تنادي باسم الحرية . اما كفي الانسان مجداً انه انسان ؟ » .

انها لغة واحدة في كليهما ، او اسلوب واحد بسيط ، ولكنه جميل في بساطته ، جاله في معانيه ، وفيه رقة وفن وشاعرية .

ونعيمة دائماً لا يحاول ان يكون غير نفسه في كل ما يكتبه فاسلوبه هو هو لا يتغير ولغته البسيطة الجميلة الواضحة هي هي ، وروحه المحبة الواسعة هي هي ، ونوع تفكيره العاطفي الخيالي هو هو . وبهذا كله يتميز طابع نعيمة الادبي عن سواه .

واست اراني في حاجة الى ان ابين مزايا الطابع الشخصي للريحاني ، مثلا ، او لأبي ماضي ، او لنسيب عريضة ، من ادباء المهجر الشمالي ، فهي في رأينا اوضح من ان نحاول ايضاحها وتحديدها ، كما ان المجال اضيق من ان يسمح لنا بذلك . غير انه لا بد لنا من التعريج على المهجر الجنوبي لنذكر شاعرين منه امتازا بالشخصية القوية البارزة في شعرهما ، وهما فوزي المعلوف ، والشاعر القروي . ففوزي المعلوف يتميز في شعره بنصاعة العبارة، وجمال التشابيه والاستعارات ، ولطف الخيال كما يتميز بحسن اختياره للفظة الدالة على معناها مع المحافظة على التعبير الشعري التصويري الخالص . ولعله في هذا اول من استحدث الاسلوب الشعري في الشعر العربي المعاصر بعد ان استحدث جبران في النثر مثله . وعنه نشأت المدرسة الشعرية العربية الحديثة التي برز فيها امثال ابي القاسم الشابي ، والتي تعتمد على الجمال والموسيقى في اللفظة والعبارة ، وعلى الغنى الدافق بالصور والالوان اللطاف .

خذ مثلا النشيد السادس من ملحمته « شعلة العذاب » فهو يدلك على نوع شعره على التعبير الشعري الفني الذي نعنيه عنده :

ايها الورد ، والضحى فضّ كمّك   كيف تبكي – بلا سبب
لم تُثر بعد شقوة العمر غمّك   فالتشكي – اذن عجب
كيف تبكي والفجر يفترّ للارض   فيمحو قطوبها بافتراره
ما عرفت الربيع غضاً جميلا   للأماني بسمة في اخضراره
لا ولا الصيف ناسجاً في محياك   خيوط الحياة من انواره
ما رأيت الخريف في صدرك العاري   يوشي عقيقه بنضاره
والشتاء الحزين يغسل ساقيك   بدمع ينهلّ في امطاره
ما عرفت النسيم روحاً خفيفاً   عِطْر انفاسه دليل مزاره
غمغمات الغرام تسمع من فيه   وهمس السماء في مزماره
دغدغ الروض عابثاً بنداه   ساكباً روحه على ازهاره
ما رأيت الفراش يطوي جناحيه   ويهوي عليك بعد مطاره
يتملى من كأس كمك نحلا   ثم يلوى بنشوة من عقاره
قلبه ذائب على شفتيه   قُبلا لم تزل تؤجج بناره

ففي هذا الغنى الكثير بالصور الشعرية، وهذه العبارة الناصعة، يتلخص طابع فوزي المعلوف الشعري ، ويضاف اليها كآبة عميقة تسيطر على نفسه فيصطبغ بها شعره .

واما الشاعر القروي فيمتاز بذوب الاحساس في حنينه ، وبفورته الدامية في وطنيته . واما التعبير الفني فله فيه ، مثل « الربيع الاخير » و« اقحوانة ابرنكا » وقليل غيرهما – لان شعره وطني في الغالب والشعر الوطني الثائر يعتمد كثيراً على الالفاظ الخطابية ، ذات اللهجة الحادة المثيرة . وهنا نجد طابع القروي الشخصي في شعره . فعبارته الشعرية هي عاصفة مزمجرة ، لالفاظها وقع الهول لأنها تعبير عن ثورة عصوف ، وهذه الثورة التي تصورها عبارة الشاعر ، لا بد ان تنتقل مع الفاظه الى نفس القارىء ، فتضرم فيها النيران . ومن ذلك قوله في « عيد الفطر » :

صياماً الى ان يفطر السيف بالدم   وصمتاً الى ان يصدح الحق يا فمي
أفطرٌ ! وابناء الحمى في مجاعة ؟   وعيد ! واحرار البلاد بمأتم ؟
هبوني عيداً يجعل العرب امة   وسيروا بجثماني على دين برهم

وقوله ايضا :

« احبوا بعضكم بعضا » ! وعظنا   بها ذئباً فما نجت قطيعا
فيا حملا وديعا لم يخلف   سوانا في الورى حملا وديعا

وبعد فقد قلنا كثيراً عن الطابع الشخصي المستقل لدى المهجريين، وذكرنا كثيراً شيوع الاسلوب الادبي الفني في كتاباتهم . وقد كنا نود ان نقف طويلا عندهذا الاسلوب الفني لنبين خصائصه عندهم ، ومدى ما فيه من قوة، لولا ان الاديب المصري المعروف الدكتور محمد مندور قدسبقنا الى ذلك في كتابه« الميزان الجديد» فقد حلل هناك عدداً من القصائد والقطع النثرية المهجرية في فصول متتابعة تحت عنوان « الادب المهموس » ، اهتم فيها كثيراً ببيان قوة الالفاظ في الدلالة على معانيها ، وفي جمالواقعها . لذلك نحيل القاري، الى تلك الفصول ، ففيها ما يروي غليله ، شاكرين للدكتور مندور فضله في خدمة الادب الرفيع بتلك الفصول القيمة .

عيسى ابرهيم الناعوري

كلية تراسانتا – القدس

في غرناطة

بقلم شكري فيصل

☆

لا تسلني أين انا يا صديقي . . انا في جنة الارض . . انا في غرناطة الزاهرة . . اشهد من وراء الضباب معالم التاريخ ، واسمع من وراء الجيل اصداء الارواح ، وتهمس في أذني هذه الخمائل تحدثني حديث المجد الذي شهدت ألقه وانواره . . انا في دنيا من النضارة التي لا توصف ، ومن الجمال الذي لا يعرف ، ومن الروعة التي تأخذ على النفس كل سبيل . . . انا في غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي . . أنا في « جنة العريف » . في هذه الارض التي أرادها الله دليلاً على جنته ، وبرهاناً على قدرته ، وعنواناً لروائع آياته ، وبدائع بيناته . . انا في هذه الروضة التي تنطلق فيها ذاتي من اسار الجسد ، وترتفع عن نطاق المادة ، وترفرف في عالم الخلود . . أنا في غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي ، فما املك ان اجيبك . . ان الكلمات تموت على شفتي ، والتمتمات تختفي في فمي ، وانفاسي اخاف منها ان تقطع هذا الصمت الهائل . . لا تسلني . . فان ارواح الملايين من سكان قرطبة تشهد هذا الفتى العربي : يسير في بطء ، ويمشي في حذر ، ويطأ الارض بقلبه . . بجوارحه . بسواد عينيه . . قبل ان يطأها بقدميه . . انها بلاده . . انها ارضه التي مشى فيها اجداده . إنها هذه الدنيا من السحر الذي يملك عليه سمعه وبصره وفؤاده . . . انها غرناطة .

لا تسلني يا صديقي . . فقد عقل الالم لساني ، وحبست الدهشة بياني ، وملكت الروعة جناني . . أنا هنا بين الاعجاب والآهة ، وبين الدمعة والابتسامة ، بين النظرة التي تطفح بالحب والخد الذي تنديه الدموع . . . انا هنا بين نفثة المحموم ونفحة المأخوذ . . بين الألم الذي يقطّع كبدي ويفتته كالرمل وبين الاعجاب الذي يستطير بي . . انا بين هذه النقمة التي صهرت قلبي فلم اعد ادري اين هو وبين هذا الامتاع الذي اتسع معه قلبي حتى شمل الكون . . . انا هنا بين البث والكبت ، وبين الاجهاش والصمت انا في غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي فقد خشيت ان يشمت بي الدليل فابتسمت ، وخفت ان يهزأ بدموعي فضحكت . . وارتضيت ان تعلو الفرحة وجهي على حين تنهش الآلام فؤادي . . رضيت ان يلمع في عيني البريق على حين احس لهب السياط . . رضيت ان يضوي في وجهي الاعجاب على حين يغلي ضميري بالدموع . . اجل يا صديقي . . شد ما رضيت ودافعت . . وقبلت ورددت . . . ووعيت واضعت . . وشهدت وغبت . . فأنا في غرناطة .

***

غرفة العدل في قصر الحمراء

لا تسلني يا صديقي ان احدثك . . فقد غبت عن عالمي الذي عشت فيه الى عالم آخر بعيد . . لم اكن احيا بهذا الكيان الذي احسه ، فقد استحال هذا الكيان في طرفة عين ، روحاً هائمة ، وطيوفاً حالمة ، ومشاهد غائمة . . . لم اكن اعيش في دنياي ،

وانما احسست ان هذه الدنيا قد استدارت فارتدت الى الوراء قروناً وقروناً ، تشهد هؤلاء الملوك الذين يجوسون هذه القصور ، ويتقلبون في هذه المقاصير، وينعمون بهذه الجنة . اجل يا صديقي . لم اكن احيا بكياني ، ودنياي . . فانا في غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي . . فقد كانت تلك ساعات من العمر . . ثم . . ثم تقضت . . ساعات تستطيع ان تقول ما كان اقصرها . . وتستطيع ان تقول ما كان اطولها . . ولكنك لا تستطيع ان تنساها رفة عين . . انها في ذاكرتك أبد الدهر . . وفي عينيك مدى العمر . . انها ملء سمعك اذا اصغيت ، وملء عينيك اذا ابصرت . . انها صورة غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي . . فما عرفت الهمس احلى من الحديث ، والصمت اروع من الكلام ، والوصف اعجز من ان يبلغ الواقع ، كهذا اليوم . . اليوم يا صديقي آمنت ان هذه الاقلام تخفى قبل ان تدرك أسرار هذه الجنات ، وتنقل هذا الواقع الى دنيا البيان ، وتعبر عن لغة الله بلغة الانسان . . اليوم آمنت بذلك فصدقني . . فانا في غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي . . لا تحاول ان تقطع عليّ هذه النغمة الصامتة التي احياها . . ان غرناطة حلم شهي ، اطوّف فيه . . اني اسير في الطرقات مطرق الرأس في الارض ، او مصعدّ البصر في السماء : انظر ولا ارى ، واصغي ولا اسمع ، واحس ولا اجد . . فلا تفسد عليّ هذا الحلم .

ان غرناطة تشبه تنفس الصبح . . اني افنى في شهود هذا الصبح ، بين الظلمة والنور ، بين الليل والفجر ، بين اللون واللون ، بين همس النجم وتبرج الشمس . . ان الفجر الذي يتثاءب ليفسده الحديث ، فلا تطلب اليّ ان احدثك عن هذا الفجر . . ان غرناطة ، يا صديقي ، سر . . سر يستكن في الضمير ، ويلمع في الخيال ، ويوسوس في الصدر . . انه سرّ يهمس في الفؤاد ، ويجري مع الدمع . . أفتريدني ان احدثك فافقد هذا السر الذي اعيش به .

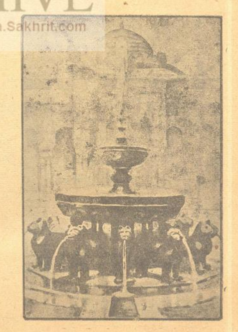
***

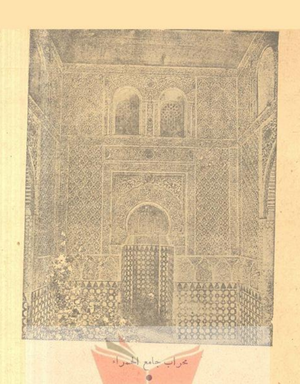
لا تسلني يا صديقي . . ان الساعات التي نحياها ، هنا ، في تربة الاجداد ، ومخلفات الامجاد ، وروائع الآيات ، ليست من عمرنا الذي نحياه ، هناك ، في خبث الاصدقاء ، ومكر الرفقاء ، وتجهم الصحابة . . انها ساعات تتنزل من السماء تحمل الخير ، وتهدي الى الرشد ، وتسمو بالانسان من قرارة الوادي الى ذروة الجبل . . انها الساعات التي تظل في عمر الانسان كما ظلّ قصر غرناطة ، ومسجد قرطبة ، وجامع بني امية في دمشق : خاوداً على الزمن ، وعبثاً بالاجيال ، وطيّاً للقرون . . انها ساعات غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي ، فما املك القول . . كنت امشي على الارض مع هذا الموكب . . اشهد هذه الجنات . . ثم . . ثم سرعان ما أحسست الرعدة في اوصالي ، والفورة في دمي ، والعرق يتصبب مني . . لم اعد هذا الانسان الذي يمضي على رجلين ، وانما انا هذه الفكرة التي تحلق بالجناح ، وهذا الخيال الذي يطوف بالرفرفة . . انما انا هذا الألم الذي يفجر دمع العين ، ودم القلب ، وهذا الأمل الذي تجتمع له الارض من اطرافها : في ظلال من الصحراء ، والوية من مكة ، وسقاء من زمزم ، وماض تليد من دمشق وبغداد ، والقاهرة والقيروان ، وقرطبة وغرناطة . . لا تسلني فأنا حاضر غائب ، ومقيم غريب ، وبعيد قريب . . انا هذه المتناقضات التي لا

بركة الاسود





محراب جامع الحمراء

تستقر ، وهذه المعاني التي لا تلتقي . . انا هذا الغموض الذي لا اعرفه ، وهـذا القلق الذي لا ادركه . . فكيف ، كيف تطلب الي يا صديقي ان ادلك واجيبك . . اعد الي احساسي بذاتي لأحدثك فقد فنيت ذاتي في جنات غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي عن ايامي في غرناطة ، وعن هذه الثروة التي اختزنتها اعيش عليها ، امداً من دهر . . لن يكون في طاقتي ان اتحدث عنها . . انها تحيا في عروقي مع الدم ، وفي صدري مع الروح ، وفي عقلي مع هذه البديهات الاولى . . انها تحيا في قلبي مع هذه الانسانة التي تحدوني ، وفي نفسي مع اهلي الذين رعوني ، وفي ما وراء ذاتي في هذا العالم الفسيح الذي يعيش فيه اجدادي مـنذ سمعت الصحراء اول حداء ، ورجعت الابل اول حنين ، وتغنى عربي بأول قصيدة . . لن يكون في طاقتي ان اتحدث عنها . . انها ايام غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي . إغفر لي بياني ان يتملكه العجز ، ولساني ان يعقله الدهش ، وعيني ان تريا فلا تمالكان الرؤية ، وان تنظرا فلا تستطيعان النظر ، وأن ترفا رفيف الخشوع ، وان تكفا وكيف المفجوع ، وان تغمضا على الحلم المضطرب . . اغفر لي فأنا في غرناطة .

***

لا تسلني يا صديقي مـا غرناطة . . لقد تعودت ان اكتب اليك كل شيء . . اما اليوم فأحسب انك – وانت ابر الناس بي وأحناهم علي – تشفق علي . . . فلا تعد بي الى دنياي . . خلني وهذه العوالم التي تمتزج فيها الحقائق والاوهام ، والوقائع والاحلام ، والظلال والنور . . خلني وهذه الدنيا التي يشرق فيها المـاضي حين يغيم الحاضر ، وينبت فيها التـاريخ من خلال هذه المشاهد الموائل ، وتتحدث فيها الحجارة الصم حديث البيان البليغ . . خلني وهذه الدنيا اتقلب في جنباتها ، وأطوف في ساحاتها ، واقف عند كل اثر من آثارها وقفة العابد الفـاني في محاريب الصلاة . . لا تسلني عن هذه الصلاة التي صهرتني في غرناطة . . فقد كانت دنيا ودنيا ، وتاريخاً وفناً ، وامجاداً وذكريات . . كانت هذا المزيج الهائل الذى لا يجليه وصف ، ولا يبين عنه حديث .

هذا اليوم ، ايها الصديق ، ثم اتحدث اليك بعد ذلك ، حينما اصحو من هذا الحلم الجميل : حلم غرناطة .

القاهرة — شكري فيصل

سارة تيسديل

☆

ما سجل تأريخ الادب الامريكي في العصر الحديث شعرا ظفر من الشهرة والتعلق به مثل شعر (ساره تيسديل) فقلما اعطى الشعراء نظير قصائدها التي تعد نماذج رائعة للشعر الغنائي .

ولدت هذه الشاعرة المبدعة في اليوم الثامن من آب ١٨٨٤ في (سنت لويس) بولاية (ميسوري) وطوفت في اقطار اوربا والشرق الادنى بعد ما اتمت دراستها . وفي سنة ١٩١٤ تزوجها الكاتب ارنست ب. فلسنجر ، وبعد عامين رحلا الى نيويورك ، واستقرا هناك .

كان (قصائد الى ديوس) اول دواوين شعرها ، ولكنه دل ، على الرغم من صغره ، ومن ان صاحبته ما تزال شابة في الثالثة والعشرين من عمرها ، على شاعرية خصبة وقريحة مبدعة . وبعد ثلاث سنوات ظهر ديوانها الثاني (هيلين الطروادية وقصائد اخرى) وقد تجلت فيه صنعة شعرية نفسية يمازجها جمال اصيل صادق ، ورفت الموسيقى على كل ما فيه من شعر غنائي وشعر مرسل .

ثم ظهر ديوانها الثالث (اغاريد الحب) فاذا به نموذج حسن للشعر الغنائي الحافل بالاحاسيس العميقة التي تجلوها بالالفاظ موهبة شعرية رفيعة ، ووثبة سمت بالشاعرة نحو الكمال . واصدرت بعده (اللهب والظل) فكان من خيرة مؤلفاتها ، اذ ان ما فيه من الجمال غزير ، بعيد الغور ، يكاد يتبين فيه قارئه ملامح نزعة صوفية . وهذا الديوان يمثل لنا تقدم الشاعرة الاعظم فقد اثبت انها باتت نقادة تختار جياد الالفاظ فتنزلها منازلها باحساس دقيق رهيف ، فتأتلف المعاني مع الموسيقي ، وتغدو القصيدة قطعة فنية ووحدة منسجمة من اللفظ الرقيق والمعنى النبيل والجرس العذب .

وبات طريق الشاعرة بعد هذه الدواوين معبداً ، فخطرت فوقه يقودها الشعر الى الشهرة المدوية ، وينيلها الحب والاعجاب ، ويعقد على مفرقها اكليل الغار .

☆

من ديوانها اغاريد الحب

•

انشودة نيسان

يا شجرة الصفصاف المتشحة برداء نيسان

أيتها الرقيقة المتألقة . .

أتأسين لأعوام رحلت

بكل احلامي ؟!

كان الربيع نداء هتف بي ،

ولكنني لم استطع تلبيته

فقد كنت مقيدة بالوحدة

أنا ، انا الراقصة . . .

☆

يا شجرة الصفصاف المتلألئة تحت الشمس ،

هدئي اوراقك ، وانصتي إلي . .

فأنذاء ، اخيراً ، استطيع تلبية نداء الربيع

ان حبيبي بقربي !

السلام

السلام يتدفق في قلبي

تدفق المد المندفع نحو البحيرة عند الشاطىء

هو لي ، الى الابد ،

ولن يجزر كالبحر . . .

☆

انا بحيرة الزرقة

التي تعبد السماء النيرة .

ان اماني التي علت علو السماء

انت التي حققتها كلها .

☆

انا بحيرة الذهب . .

وحين تحترق الشمس وتأفل

فأنت يا معاني العميقة

هات النجوم لأمسك بها !

النظرة

قبلني (ستيفن) في الربيع ،

و (روبن) في الخريف ،

اما (كولن) فكان حسبه ان يرمقني

ولم يقبلني أبداً .

☆

ان قبلة (ستيفن) ضاعت في الدعابة ،

وقبلة (روبن) ضاعت في اللعب ،

لكن قبلة عيني (كولن)
ما برحت تلازمني مع ليل ونهار !

جواهر

لئن رأيت عينيك ثانية ،
فاني عالمة بالمدى القصي الذي ستصله نظرتها
عائدة الى الصبيحة التي قضيناها في المتنزه
الذي تغطي الظلال الياقوتية جليده .

☆

او عائدة الى اشجار السنديان ، في الربيع
حيث جمعتَ شعري المنسدل
وقبلتَ الرأس الذي رقد على ركبتيك
في ظلال الصخور ...

☆

وهناك مكان مشرق آخر ستتذكره
ستتذكر كيف قضينا معاً ،
في قمة الجبل الاشهب الأشم .
صباحاً بلورياً مبيضاً بشعاع الشمس .

☆

ولكني سأحوّل عيني عنك ، واستدير
مثلما تستدير النسوة لينزعن
الجواهر التي تحلين بها ليلاً ،
ولا يستطعن التحلي بها في نهار رزين .

بعد الفراق

لقد بذرت حبي بذراً
ليجده في كل مكـــان ،
انه سيوقظه ليلاً ،
وسيحيط به نهاراً .

☆

لقد اطلقت ظلي امام بصره
وجنّحته بالحنين ،
ليكون سحابة في النهار
وسهماً من النار في الليل .

مد وجزر

كان الحب في قلبي مداً عذباً متدفقاً
وحيث حلقت طيور البحر كوكبات
كانت الشمس تأتلق ، وكان الزبد يندفع
على الساحل الصخري الاشم .

☆

ولكن الآن ، عند الغسق ، يعود تيار الجزر
وتحوم طيور البحر ، دانية من الماء ،
اما الامواج التي اندفعت في حنين مجتاح
فقد تحطمت .. الى الابد !

مقايضة

ان للحيـــاة جمالاً تبيعه ..
فلها كل ما هو حسن فاخر ،
الموج الازرق الذي يبيض
على صخور الشاطىء ،
والنار العالية المتحركة .. الشادية ،
ووجوه الاطفال الناظرين الى السماء
بدهشة وسرور ...

☆

ان للحياة جمالاً تبيعه ..
فلها موسيقى مثل قوس من الذهب ،
ولها عطر الصنوبر العابق عند انهمار المطر ،
وعيون تهواك ، واذرع تعانقك .
ولامتاع روحك الهادئة
لها افكار مقدسة تضيء الليل بنجومها .

☆

اعطِ كل ما تملك ثمناً للجمال ،
اشتره ولا تحسب للثمن حساباً ،
فان ساعة عزاء صادحة من ساعات السلام
عِدْلُ سنين عديدة محتربة ضائعة ،
اعطِ لقاء نفس واحد من المرح
كل ما ملكت يمينك !

البصرة　　　رزوق فرج رزوق

لو كنت اعرف

بقلم لويزا مهر

☆

كان من عادة سيمون آرشيه عندما تعود من مكتبها ان تلقي بتحية فرحة مرنانة مع عبورها عتبة المنزل ، وعلى غير عادتهـا دخلت هذا المساء فكانت متجهمة صامتة وذهبت قدماً الى غرفتها ، واغلقت بابها بعنف لم يكن مألوفاً منها فتطلعت امها دهشة بينما كانت تضع غطاء المائدة ونادت :

– سيمون ! أهذا انتِ يا سيمون ؟

ولما لم تتلق اي جواب ، القت من يدها الصحن الذي كانت تحمله ، واجتازت الرواق وفتحت احد الابواب ، وعلى الرغم من العتمة التي كان ينشرها الجو الماطر فان سيمون لم تضيء الغرفة بل لم تخلع معطفها المبلل وانما وقفت منتصبة تنظر امامها ، محدقة في معنى بعيد من معاني الكآبة واليأس ، واذ ذاك صرخت مدام آرشيه :

– سيمون ! سيمون ! ما بك يا عزيزتي ؟

وحاولت ان تضم الفتاة الى صدرها ، بيد ان هذي تفلتت منها .

– اتركيني يا أمي ،

ثم مدت نحوها يدها اليسرى ، تلك اليد البيضاء ، الدقيقة العارية وتمتمت بصوت أبح يكاد لا يسمع :

– انا لم اعد مخطوبة ، أرأيت يا أمي ؟

وصعقت مدام آرشيه لهذا النبأ ،

– ماذا تقولين؟ لم تعودي مخطوبة؟ هل قطعت علاقتك بفيليب؟ هذا مستحيل! كان عليكما ان تتزوجا في آب - وكنتما متحابين كل الحب ومتفاهمين احسن التفاهم .

فأردفت سيمون تقول بنفس النبرة الغريبة :

– لم اذهب بعد ظهر هذا اليوم الى المكتب ، فقد التقيت بفيليب ، ثم ركبت القطار وذهبت الى ملجأ سان فانسان .

وهنا امتقع لون مدام آرشيه بشكل مرعب .

– الى ملجأ سان فانسان ؟

فأجابت سيمون وهي متجهمة الوجه :

– نعم الى ملجأ المدمنين ، حيث قضى والدي نحبه ، مهملاً مهجوراً من الناس اجمعين ، حيث يرقد والدي الذي سرق ، ودخل السجن مع المجرمين ، وادمن على الشراب من بعد حتى اضطرت السلطة الى الحجر عليه .

ثم ادارت برأسها نحو امها ، وقالت :

– لِمَ أخفيتِ عني ذلك كله ؟

– أخفيت . . . لأدفع عنك العذاب يا عزيزتي ، واجنبك الشعور بالضعة ، وربما بالعار ! لقد كان كل همي في الحيـاة ، ان اصونك ، واجعلك سعيدة .

– انت ؟

وترددت سيمون لحظة ثم صرخت بصوت حاد متحرق : لو كنت اردت حقاً سعادتي لما رضيت بالطلاق من ابي .

وكأن هذه الكلمة قد مست مكاناً أليماً من امها فشهقت قائلة :

– انت لا تستطيعين ان تفهمي هذه الاشياء . . . هل استطيع ان اتساهل . . .

ابتعدت الفتاة بضع خطوات دون ان تجيب ، ثم رفعت ستـار الشباك والقت جبينها على الزجاج الذي خططه سيـل المطر ، وقالت متمتمة :



ترجمة احمد عويدات

— كنت احب ابي حتى العبادة ، ولم اكن قد جاوزت الخامسة من عمري حين هجر البيت ، غير اني حفظت ذكراه واضحة في نفسي ! اني لأبصر الآن قامته الطويلة ، وشعره الاسمر الجعد ، وابتسامته الخاصة التي كانت له وحده من بين الرجال ، تلك الابتسامة الخفيفة اللاهية الساخرة نوعاً . . لقد كان يحبني كل الحب ، كان يحملني على كتفيه يلاعبني لعبة الحصان ، وما عهدته قط ضجراً ولا تعباً ، كان يأخذني الى المتنزهات في البراري شارحاً لي — بكلمات لا يمكن ان انساها — حياة البهائم والنباتات العجيبة . وكنت لا ترافقيننا حتى اذا رجعنا كنت تستقبليننا باللوم والتعنيف قائلة : ما لهذه الطفلة محمرة ، منفوشة الشعر ، قذرة . لا . . . لا . . . لا تمسي ثوبي يا سيمون ! » وكنا اذا جلسنا للطعام يهيمن على المائدة جو ثقيل من الصمت يجعلني لا اشعر بالجوع . وكان ابي يبدو ذاهلاً مستغرقاً ، وانت عابسة صارمة ، وفي بعض الاحيان عندما آوي في المساء الى فراشي الابيض المورد كنت اسمعك تتكلمين جهرة ، فتنهمر الدموع من عيني وانتحب بقاق لا يوصف رغم اني لم اكن افهم شيئاً مما تقولين . واراكم فجأة تذهبون بي الى جدتي حيث امضي اياماً طويلة ، اياماً مثقلة بالضجر والخواطر الحزينة ، وعندما ارجع الى المنزل لم اكن لادرك ما طرأ من تبديل على اثاثه بسبب هذا الارتباك الذي اعتراني بغياب والدي . كنت افتش عنه في كل مكان ، اناديه بصرخات عالية ، بينما كنت تدخلين في روعي بانه ذهب الى اعماله وانني سوف اراه عما قريب . وكان ان قادتني الخادم « لينا » يوم الاحد التالي الى حي بعيد وادخلتني بيتاً مجهولا ، وهناك . . لقيت والدي . فالقيت نفسي عليه لاهثة واخذنا في البكاء معاً ، ثم اخذني الى حفلة « الجنيول » وتناولنا طعام الاصيل في صالون الشاي . لقد كنت آنذاك في ذهول من الغبطة والفرح ، فكانت اللحظة رهيبة حين جاءت « لينا » تطلبني في المساء . . . رفضت بعنف ان انقاد لها وتعلقت باذيال ابي ، اذ كنت آليت ألا ارجع إلا بصحبته . وبدا عليه الغم في عنف واستنكار ، وراح يقص علي انهاكه بعمله ، ومع زبائنه ، ويعدني بلعبة مدهشة اذا كنت مطيعة . . واخيراً رضخت وانا موزعة النفس بين اخفاقي وبين اغراء هذه اللعبة العجيبة . انني ما أزال اذكر حين رجعت كيف رميت بنفسي بين ذراعيك ورحت احدثك بلهفة وحنان عن ابي والجنيول والحلوى واللعبة ، وكيف انتهرتني اذ ذاك بصوت جاف ان اسكت . اليك عني لم يعد يخاف علي ما كنت تحظرينه من ان اتكلم عن ابي امامك مع انه كان يتسقط اخبارك كل يوم احد . ويصغي الي بجوارحه ، متأملاً حزيناً ، كان يحبك دائماً .

— ابداً ! . . ابداً .

زفرت مدام آرشيه وهي تتميز من الغيظ ، لقد خدعني ، كان زواجنا خطيئة لا تغتفر ، كنا صغيرين ، فلم يفهم احدنا الآخر تمام الفهم ، وتبينا ان لكل منا مزاجاً مخالفاً للآخر : كنت احب المدينة . . . الناس . . . الاناقة . بينما كان « سرج » يفضل الوحدة ، وعيش الغابة ، والانفلات الى البراري والحقول ، انه لا يميل حتى الى الطرقات العامة ، بل ينسرب على غير هدى خلال الروابي والوهاد ، سيان عنده أكان ذلك تحت وابل المطر ام تحت وهج الشمس .

انه لم يكن يفهم رغبتي في تسريحة جميلة او قبعة او محفظة لطيفة ، كان يقول لي دهشاً . « لا يزال فستان الصيف الماضي الابيض يجعلك جميلة جداً » . لقد خسر علاوته بسبب طيشه ، والواقع انه كان لا يطيق حياة المكتب ، وقد رسخت في ذهنه فكرة غامضة عن قيمة المال ، وعندما علمت انه يخدعني مع فتاة جميلة كان وقع ما علمت أليماً علي . . . آه لقد عرف اخطاءه وفهم جيداً انه يجلب لي الحقد .

— اما طلب منك الصفح والغفران ؟ وهزت مدام آرشيه كتفيها وهي تقول :

— طبعاً قدم لي الف عهد ووعد ولكن كيف السبيل الى تصديق الوعود من شخص يخدعك .

— لقد كنت قاسية القلب : صرخت سيمون ، فانت الآن تتحملين تبعة جميع ما حدث بعدئذ .

ودون ان تعير اعتراضات امها انتباهاً تابعت تقول :

وعدت الى جدتي بعد لأي من قطيعتكما وانتقلت بي الى مدينة اخرى ، وكان ان استبدلت بـ « لينا » خادمة اخرى ، ولم يعد احد يوصلني الى حيث ابي يوم الاحد . وكنت اذا توسلت اليك بأسئلتي ودموعي تجيبينني بصوت جازم ان والدي ذهب في سفر طويل ، واخذت انقطع شيئاً فشيئاً عن سؤالك وكنت تقدرين وانت مطمئنة ان النسيان سرعان ما يستولي على قلب صبية مثلي . . . محال ان انسى والدي . . . فصورته لا تزال تراود مخيلتي على انني ما احببته مقدار ما احببته ايام كنت ألوذ الى الصمت ، ولسذاجتي خلصت الى الاعتقاد بان هذه الرحلة الغامضة التي قام

بها والذي انما هي الرحلة التي لا سبيل الى الرجوع منها ، كنت معتقدة بان ابي مات، وصعدت روحه الى الله فكانت هذه الفكرة التي من شأنهـا ان تحماني على اليأس هي التي كانت لي سلواناً وتعزية ، لانه الآن بجوار الرب ، فهو يراني ويرعى حياتي الصغيرة ومساعي الرشيدة كل يوم ، وهو يعلم مبلغ اعزازي له .

البارحة، عند الصباح «تلفن» لي السيد مارتان فرنيه ورجاني ان احضر الى مكتبه ! وهناك اطلعت على الحقيقة ! حقاً ان السيد مـارتان فرنيه لطيف جداً ، واعتقد انه يحبني كثيراً ، وكيف استطيع ان أفيه ذلك . ان رجلاً كالسيد مارتان فرنيه رئيس مصرف كبير ، وذو نفوذ سيـاسي ، له تأثير واتصالات مع الاوساط العالية جميعاً ، رجل كهذا يحرص على مستقبل ابنه الوحيد لا يسعه ان يقبل كنّة له هي بنت محتال ، مقامر ، سكير ، وازاء هذه المفاجأة الرهيبة قابلني السيد مارتان فرنيه بعبـارات مفعمة بالعطف والفهم لمصير والدي البـائس ، كان ابي لطيفاً ومحبوباً ، ولكنه بكل اسف ضعيف، لقد انطلق وراء امرأة غير جديرة به، لتلعب معه رواية الحب الرخيص، بعد ان خذلتيه انت ، وتراكمت عليه الديون فسرق ، واراد ان يقامر ، ليصلح ما بدر منه فما زاده ذلك الا تهوراً ، وحكم عليه بالسجن آه ! يا الهي ! .. حين افكر في عذابه وتعاسته، كان ضعيفاً ومجرماً كما يبدو ولكن في قرارة نفسه نبيل ورقيق ، لعله استنجد بك حينئذ او لعله لم يجرؤ على ذلك ! ولكن انت على اي حال كنت تعلمين حاله ! كان عليك ان تبادري لمساعدته وانقاذه ، انه لم يفقد كل شيء ، فما يزال لديه بعض الامل ، لم يكن في قلبك ذرة من عطف ، فقد خرج من السجن اباً ضعيفاً عاطلا عن العمل لا سند له ولا معين فانكب على الشراب ، ولم تمض سنتـان حتى لقي حتفه في ملجأ سان فانسان وحيداً بائساً كأن لم تكن له في هذا العالم امرأة او فتاة صغيرة ! .

وانقطع صوت الشـابة الصغيرة في اعوال بينما اخذت مدام آرشيه تحتج :

— وهل فسخ فيليب الخطبة بسبب هذه القصة القديمة .

فأجابتها سيمون باعتزاز :

— لم يفسخ فيليب الخطبة ، بل انا التي جعلته في حـل من ارتباطه ولقد احتج وبكى واقسم بانه سيعتبرني دائماً خطيبته .. سيشقى قليلاً ، ولكن سيعلم انني على حق .

— ولكن انت ! .. انت .. صرخت الام .

— انا .. لست ادري فقد تحطم مستقبلي، بضربة واحدة.

آه ، انني أستطيع ايضاً ان اكون محبوبة ، فهناك شباب لا يعبأون بهذه القصة القديمة كمـا تقولين ، ولكن انا ، لا استطيع بل لا اتحمل ان تكون بائتي هذه الاطخة وهذا البؤس ، آه .. نعم يا امي انا اعرف ما سوف افعله ، كأنني اسمع صوتاً يلهمني ذلك ، هناك كثير من الاشقياء في العـالم ، كثير من المنبوذين المهملين سأذهب اليهم واواسيهم، فالملاجئ تشكو قلة العاملين المحسنين .

— ابداً ! .. ابداً .. لن يكون هذا ابداً ، تضرعت اليها مدام آرشيه ، هذا هو الجنون بعينه، فكري بأمك يا سيمون ؟ .

ولكن سيمون لم تتحرك ، وما زالت جبهتها لاصقة بزجاج النافذة ، فتقدمت منها امها واحنت رأسهـا بادية التأثر ، فقد انبعثت فجأة في اعماق نفسها ذكريات ذلك الامس البعيد بكل ما فيه الاقوال التي رددتها امهـا هي على مسامعها في تلك الفترة العصيبة يوم اختلفت وزوجها : « ابنتي ! ... فكري ، وصلي قبل ان تبتي الامر بالطلاق . يمكنك ايضاً ان تكوني سعيدة اذا اردت ذلك ، اذا تحليت بشيء من التواضع والارادة الحكيمة ، تظنين ان ليس لك عيوب ، انت ، لما ترين الا عيوب « سرج » ؟ انه يحبك ، تقولين : انه خدعك ، ذلك المرأة قذيفة مرة، وهم رهيب ، انا اعرف ذلك ، ولكن الم تدفعيه انت بنفسك اليهـا بالسخط وعدم الفهم والتصرف الشائن ؟ ان « سرج » يعز فتاته الصغيرة ، لا تحولي دون رؤيته اياها ، من يدري ما سوف يفعل به اليأس والوحدة ؟ ارى انك سترفعين كتفيك علامة الهزء واللامبالاة . انت يا بنيتي صغيرة ، لم تجربي الحياة بعد ، سوف تندمين يوماً على عنادك وسوف تذكرين نصائحي ، لأنني لن امكث طويلاً في هذا العالم » .

يا لله ان اقوال والدتها تنبعث الآن في ذاكرتها كما ان الخطاب المؤثر الذي بعثه زوجها من السجن يعود الى ذهنها ، لقد توانت في الرد عليه ، بل حين بلغها بعد زمن خبر موته داخلتهـا نشوة من الزهو للموقف الصارم الذي كانت قد اتخذته .

ومع ذلك فانها في تلك الساعة وفي هذه الغرفة المظلمة وعلى بعد خطوتين من الصبية التي اضناهـا الالم ، كانت تستعرض اخطاءها ... وضغطت جبهتها بيدها ، وهي تقول :

— « آه ! لو كنت اعرف ، لو كنت تبصرت . آه يا الهي لو استطيع ان ابدأ حياتي من جديد ! .

احمد عويدات

جان سباستيان باخ

لا يقصد من دراسة حياة العبقري ان نعلم كيف قضى حياته التي قدرت له كشخص في رواية ما ، وانما يعني بدرس حياته لاماطة اللثام عن الحالات والاوضاع والحوادث التي حفت بهـا واحاطتها وكان لها اثر ما في انتـاجه .

وانتاج العباقرة هو فيض ممـا يعتمل في انفسهم وافكارهم ، ويقدر هذا الانتاج بقدر ما يحلو من الافكار الصائبة وباختلاف وصحة تفسيره للظواهر التي تبدو بعد هذا التفسير جميلة جليلة بما فيهـا من عنصري التلاعب بالشعور والمهابة . ولا شك في ان هذا الانتاج مهما تعددت ألوانه هي الحياة التي يحياها كل فرد وحالة المجتمع التي يتفق له ان يعيشها . فالعباقرة اذن آلات حساسة ان صح التشبيه تسجل للاجيال بعض ما يؤثر فيها مفرغة هذه الآلات الحية على الاشياء اصباغ ذاتها ومن هنا نشأ الشاعر والموسيقي والكاتب والفيلسوف والعالم والقائد الخ .

ولنر الآن التأثير الاجتماعي في حياة احد هؤلاء العباقرة الموسيقيين ظهر في اواخر القرن السابع عشر وعـاش حتى النصف الاول من القرن الثامن عشر ١٦٨٥ — ١٧٥٠ « جان سباستيان باخ » .

ولد لأب موسيقي واربعة عشر جد اتصـل فيهم التفوق في الموسيقى فكأن الموسيقى جرت مع دم الاجداد الى عروق هذا الحفيد العظيم . آتاه الله بسطة في الجسم وحياة مفعمة بالموسيقى ، كان بشوشاً حلو المعاشرة وكان رجلا متديناً من اتبـاع مارتن لوثر ومن اقواله المأثورة (ان الموسيقى مهما اختلفت طريقها يجب ان تمثل عظمة الله وانك لن تكون مختار الله الى الجنة ان انت لم تكرس نفسك لعمل مضن على هذه البسيطة ، ان الحياة كفاح وان هناك قوة هائلة تعمل على ابقاء الانسان محصوراً في هذه الدنيـا وتمنعه ان يحلق في سماء الكون ليعرف الحقيقة وطالما كان الانسان تحت تأثير هذه القوى فسيبقى مكتسباً صفة الفناء .

وكثيراً ما كانت جهالة افراد المجتمع عائقاً في سمو العبقري وذلك بسبب مـا يتبعون من تقاليد مضحكة واعتبارات فانية ، هذه الاعتبارات وتلك التقاليد هي التي حملت رجال الادارة على فصل باخ من وظيفته كعازف على الارغن في الكنيسة فقد ارادوه ان يتبع في العزف نظاماً لا يقره هو ولا يستحسنه فلم يبال بما ارادوا فحنقوا عليه وطردوه من العمل . انتقل موسيقينا الى عمل آخر نجح فيه بقدر ما نجح في سابقه والسبب هو نفسه فما ارتدع باخ وما انتهى عند حد وكيف يرتدع وينتهي وهو الذي تحدى اعظم عازف على الارغن في عصره فأخافه وجعله يفر الى بلاده في اليوم المقرر لمبارزته العزف .

وتناقل الناس مقدرة باخ على ألسنتهم حتى وصلت بلاط الملك الشاعر الموسيقي الجندي فردريك الكبير وما ابطأ هذا الملك بالايعاز الى باخ بالعزف في برلين بعد ان سمع شيئاً من موسيقاه .

وجاء اليوم الموعود ودخل الموسيقار العظيم قاعة الملك العظيم وعزف وأجاد حتى ان الملك انتصب وصاح (يا الهي لا يوجد الا باخ عظيم واحد) نعم باخ العظيم وحده مع انه سُبق بعدد من الموسيقيين من آل باخ ينوف على العشرة .

ليس هذا فحسب بل ان باخ تزوج من امرأتين في حياته وخلف عشرين ولداً كان من بينهم من يُعترف بقدرته الموسيقية الخارقة ولكن لم يعرف من بينهم من فاقه .

وغيّر الزمن من معالم الموسيقي فصار هرماً ولعب بصره فأخفاه ولكنه لم يستطع ان يصل الى جوهره فيمحوه فبقيت نفسه شابة قوية مؤمنة بان عليها واجباً يجب ان تؤديه ، ذلك الواجب هو تخليد فكرته المبتدعة لقطع موسيقية رائعة وكان له ذلك فوضع جوهرتي نظمه في الثالثة والثانين من عمره تحت عنواني (آلام القديس متى) و(آلام القديس يوحنا) وهما روايتان تمثلان مـا قاساه السيد المسيح له المجد .

كان باخ الشخص الوحيد الذي علم انه نظم فأبدع وكان الوحيد الذي سر بابداعه وانتصاره وكان الوحيد الذي لفـظ آخر انفاسه في نشوة ذلك الانتصار .

اودع جثمانه الثرى وكتب على القبر (استاذ الموسيقى في مدرسة سانت توماس وعازف ارغن جيد) . اما انتاجه فقد وضعت اوراقه على رف مهجور في المدرسة مائة عام ونيف وما انتبه اليها احد في تلك الاثناء سوى التلاميذ الذي كان يحتاج الى قطعة من الورق يلف بها شيئاً من الخبز او الحلوى وهكذا اضاع الجهل معظم انتاج الموسيقى العبقرية .

القدس — جمال الدين المظفر

انامل

✩

لبديع حقي

باريس

جداول ، يا ويحها تسمرُ
وتهدر ملء اعتناق الدروبْ
الى أيّ أفقٍ تُرى تنفرُ ؟
فيخضلُّ في خطوها الحلو طيب
فيا لانسياب الجداول !

***

خمائل ، في خطرة ، تمرعُ
وترصد للنسمة الساريه
تسابيح أغلفة ساهيه
وتهفو الى حُلم يزمع
فيا لافترار الخمائل !

***

حمائل ، من زنبق فاغم
تغازل فجراً غميساً بدم
تسلسل من فوقها الناعم
سحابة وهم وأحلام فم
فيا لارتعاء الحمائل !

***

جدائل ، هاجت على معصم
تلوب على ناسج ملهم
وأوتار قيثارة حالمه
ترنّحُ في رعشة عارمه
فيا لارتعاش الجدائل !

***

سلاسل ، من لين ورد وفُلّ
تريق العطورَ وتسفح طلّ
تُرى من رمى الشوك في غرسها
تمزّقت الحلم من يأسها
فيا ويح هذي الانامل !



غروب . . .

للاستاذ ميشال بشير – ١٢٧ صفحة – منشورات المكشوف – بيروت

هذا شاعر ينعم بالموهبة الشعرية الملهمة ، ويصدر فيما ينشده من شعر عن حس فيه رقة وارهاف ، وعن خيال له جناحان يحلقان به في اجواء الابداع . . .

وانا لا اعرف ميشال بشير، وهذه اول مرة اقرأ له الشعر . . وانني لا اكاد انجح في ان اتمثله . . فبينما ينم حسه المرهف ومشاعره الرقيقة عن شباب غض، تنم متانة شعره وفحواته في غير ما قصيدة عن انه جاز عهد الشباب الى الكهولة . . على اني اميل الى ان اعتبره شاباً في ريعان العمر وعنفوان الشباب، لان هذه الحيوية في التعبير عن المشاعر والخوالج لا يؤتاها من جفت في عروقه دماء الشباب . .

فانا اذن امام شاعر شاب ، تتجاوب احاسيسه مع احاسيس الشباب ، وتنسجم خيالاته مع خيالاتهم ، فاذا هو يعبر عن كثير من خلجاتهم وخفقات افئدتهم ، كما يصور بدواتهم الفكرية تصويراً صادقاً . . وهو يتجه في بصره وقلبه وفكره الى ما يتجهون اليه من دنيا الحب والجمال : دنيا المرأة . . وهذا لا شك شأن الشباب ، وانا لا اكاد اقدّر شاعراً شاباً لا تكون دنيا المرأة مسرح فكره ومجلى شعوره . .

وميشال بشير وصاف بارع ، يرى الاشياء بعدسة مجلوّة تنقل الصورة الى فكرة فيحيطها بالمعاني العذبة، ويحيلها على فؤاده فيضفي عليها من مشاعره ، حتى اذا اخرجها شعراً كانت تنبض بروعة المعنى وعذوبة الاحساس . اسمعه يقول في « شاعر يصوّر » :

فهذه تشتكي ... اليه ما تلقاه من حبه
وطرفها عالق ... بطرفه يمن في نحبه
وتلك من لحظها ... تسدّد السهم الى قلبه
تكاد من خفة ... تسرق طيف الحلم من هدبه

فما اروع صورة تينك العينين الغارقتين بعينيه « تمعنان في نهبهما لتسرق الاحلام من اهدابها! . . وما ادمى ذلك القلب يزفر آهات ملطخة بالاحمر القاني ، وينز جراحات اذا ما انشد الحب :

في صدره خافق ... مصبوغة بالدم آهاته
تصحو وتغفو على ... انشودة الحب جراحاته
مجنح الفكر في ... دنيا من الاحلام رفّاته
على جفون الندى ... وفي حنايا الزهر غفواته

انه حقاً « شاعر يصور » . . انظر اليه يصور الجمال يذبل :

ستذبل في الغد هذي العيون ... وهذي الشفاه وهذي الخدود
ويلوي الجمال فلا هزة ... لقوام ولا رقصة لنهود
ولكنّ شيئين لا يفنيان
هما الحب والشعر

والكنه الحب الطروب المغني والشعر الخالد العبقري :

وحبي ما هو؟ نغمة شادٍ ... وشعري ما هو ؟ نقرة عود
ولولاي ما كان هذا الجمال ... انا ابن السماء : انا ابن الخلود
خلقتك من خطرات الاماني
فهدهدك السحر

واقرأ البراعة في وصف ذلك الحنين المضطرم الصامت في مقطوعة « انا والطيف » :

يدنو ويبعد لا انا ... اشكو له وجدي ولا هو .
ويهم ان يهوي على ... صدري ويمنعه حياه !
[illegible] ابن لا يفيق ... الفجر حتى لا يراه
باحت بحاجته العيون ... فلن تبوح بها الشفاه !

وعينا ذلك «الخيال الزائر» ما افتن انسكابهما، وفمه، ما اعطره :

وهل مقلتاك سوى جدولين ... يظلّهما جانحا(١) طائر
وما فرّق الزهر من عطره ... تجمّع في فمك الماطر

وهل اجمل في وصف غادة رائعة الحسن، غامضة السحر والفتنة من قوله :

وإن ضمّها باصرٌ فهي لغز ... وان لفها خاطر فهي سرٌ
واجملُ ما رسمت ريشة ... وخطّ على لوحة الفن فكر!

وهل اقوى في التعبير عن الاسى والألم والحرمان من قوله :

ومرّت ليالي من بعدها ... فلا شيء حلوٌ ولا شيء مرّ
وقلبي كالقفر ما فيه طير ... ولا فيه فيء ولا فيه زهر

وحقاً ، يا شاعر ، ان ظمأك لشديد ، وانك لتقاسي منه اقوى العذاب :

فيا هند ، حتّامَ اشكو الظما ... وثغرك كأس وريقك خمر ؟ . .

---

(١) استعماله بمعنى «الجناح» خطأ . واللغة لا تعرفه الا صفة بمعنى «مائل» .

وشاعرنا ميشال بشير شاعر ماجن ، كثيراً ما يتجاوز التلميح الى التصريح ولا يجد ضيراً في ان يصف ما حدث دون ما تمويه . واعتقادنا ان رائع الشعر في رائع الفكرة ، ما كانت معانيه خفية يتحسسها القارىء ولا يلمسها ، ويشتمّها ولا يتذوقها ، فضلاً عن ان الغموض في تصوير حدث يترك في النفس مجالاً للتأمل والفكر في حين ان المعاني المكشوفة السافرة سرعان ما يزول اثرها الادبي من نفس القارىء . فقد كنـا نؤثر ان يجتزىء الشاعر بالرمز عن الكشف ، والتلميح عن التصريح ، فلا يقول مثلاً :

أجب يا سراج اذا ما سئلت ... فما كان غيرك من شاهد
سهرت على اثنين قبل العناق ... وبعد العناق على واحد !!!

وليعد القارىء ايضاً الى قصائد «على الشطر» و «سكرة» .

.. ويتميز شعر «غروب» في مجمله بسلاسة وعذوبة تبعدان عنه التصنع في الفكرة او الاسلوب ، وهذا دليل الشاعرية المطبوعة ، وبرهان الاداة اللغوية الطيعة . من ذلك قوله :

عيناك ملؤهما تلاوين ... وملؤهما معـان
وانا وقلبي مصغيان ... فكيف لا تتكلمان
من اين لي لولا احاديث الهوى هذي الاغاني ؟

ولا اذكر اني قرأت معـنىً في شدة الاستسلام والبذل والتضحية وعمق الحنين اروع من قوله :

يا روض آمالي سلمتَ ... وان جنت شفتاي مركْ
لي فيك دمعٌ ان يجفَّ ... عصرته وسقيت زهرك !

وتذوّق هذه السلاسة والعذوبة وسذاجة المعنى الـتي تجعله حلواً في حديثه عن لبنان :

الوانه من نسج احلامه ... الله ما أزهى وما اشرقا
كم تشتهي عيناي ان تنظرا ... ويشتهي قلبي ان يخفقا !

وفي ديوان «غروب» بعـد كثيرٌ من الشعر الرائع لا يتسع المجال لذكره او تحليله ، ولكن لا بد لنا من ان نوصي القارىء بقصيدة بلغت حظاً كبيراً من الروعة والقوة في الشاعرية والتصوير كما ان طيف اسى يجول في ثناياها يبعث على الشجو والشجن ،هي قصيدة «الامل» الذي يحيي كل شيء ، ولو دُفن في التراب .

***

بقيت لنا مآخذ وملاحظات نجملها فيما يلي :

١ — لعل القارىء شعر من الابيات التي اوردتها بضعف الحس الموسيقي عند الشـاعر . وقصائد كثيرة اخرى في الديوان تثبت هذا الضعف ، ولعلّ ذلك معزوٌ الى ان البحور التي يختارها الشاعر بحور تنقصها الموسيقى المطربة التي تهدهد المشاعر ، وتثير الانغام والالحان في القلوب فترقص على رنة الوزن ونغمة القافية ، وهذا الضعف يتجلى بصورة اوضح في ميل الشاعر الى التجديد ، فتراه يعمد في القصيدة الواحدة الى تغيير الوزن اكثر من مرة ، ونعتقد ان الذي ينبغي ان يبرر مثل هذا التغيير رغبة الشـاعر في تنويع الانغام وبعث الموسيقى في النفس ، وهذا هو الذي يفتقر اليه هذا الديوان . فانت مثلاً حين تقرأ شعر علي محمود طـه او ابراهيم ناجي او محمود حسن اسماعيل تحس بتلك الموسيقى العذبة تجمّل لك المعاني وترتفع بها في مدارج الجودة . امـا اذا قرأت شعراً كقصائد «الشاعر» و «ياورد» و «نهد» و «والحـلم المجنح» وسواها ، تشعر ان هذا الشعر بحاجة الى تساوق النغم ليملك كل اعجابك ، فاين الموسيقى في قوله :

على لوحة الهوى ... معتمة شاحبـة
يسيجهـا قلبه ... بانفاسـه اللاهبة
ويغمرهـا جفنه ... بادمعـه الذائبة

وكذلك قوله في «الحلم المجنح» :

اي طيف يترو(١) على ... ثغره همس طـائر
ممعن في جو الخيال ... يماشيـه خـاطري
احس بوقع خطاه
يعصف في اضلعي
وبوح عـلى فمه
يتمتم في مسمعي

وقوله في «يا ورد» ..

نسيت يا ورد كيف قلبي ... لوى على جرحه وضمّك
وكيف اني اموت وجداً ... ان يبغ حتى النسيم لثمك

فقد كان على ميشال بشير وهو الشاعر الرقيق البديع التصوير والخيال ان يختار اوزاناً اكثر موسيقية تكسب شعره الشأن الذي يحفظ لعناصر الجودة قيمتها بل يزيدها .

٢ — وقد يمتّ الى هذا الضعف كذلك تبديل الوزن في القصيدة الواحدة تبديلاً يشعر القـارىء بواد يفصل بين الوزن والوزن ، فيفقده الطمأنينة التي يورثها في نفسه الوزن الاول ، وليس الضعف في الانتقال من وزن لآخر ، وانما في عدم التقارب الموسيقي بين الوزنين ، هذا التقـارب الذي يعجبك ويملك عليك حسك في الموشحات الاندلسية مثلاً . واحيل القارىء لاثبـات ذلك على مقطوعتي «مخبأ اسرار» و «اغنية النور» .

---

(١) ترأ الواوي في فصيح اللغة بمعنى «السفاد» للطائر فاستعمالها هنا خطأ .

٣ – في الديوان قصـائد لا تسمو الى مستوى الشعر الذي استشهدنا به ، بل هي دونه بكثير ، حتى انهـا لا تتعدى الشعر العادي ، من ذلك « صفحة حب » و« شجون ». ونصارح المؤلف بان قصيدة « الصياد والعصفور » خاسرة . . لانها فاقدة السلاسة والعذوبة ، وزاخرة بالتكلف ، فضلاً عن ان فكرتها مبهمة لا تكاد تضح ، وهي على كل حال بعيدة عن « العفوية » والالهام الذي يجول في سائر القصائد . ونودّ كذلك ان نشير الى ان قصيدة « ترحاق الضباب » انما انشئت للتملق والاطراء ، ونحن لا نسيغ في مثل هذا الديوان النابض بالشاعرية الصادقة البعيدة عن الاشخاص قصيدة كهذه .

٤ – لم نكن نرضى لشاعر مجيد كميشال بشير ان يرضى لنفسه بترديد معان ، قتلها شعر القدامى لفرط استعمالها ، فضلاً عن ان هذه المعاني تتضمن اوصـافاً غير معقولة . من ذلك وصفه الحواجب واللواحظ بقوله :

وكانت حواجبهن سيوفاً ... وكانت لواحظهن حرابا

وقوله :

وقامـة هي رمـح ... يهتز ام غصن بان

وقوله :

يسكب ذوب الرحيق من ... عينين امضى من السلاح

وذلك المعنى العادي الذي لا طائل تحته :

والحب ان لم يقابل ... بالعطف او بالحنان
ارخى الفتور عليه ... ستائر النسيان

وقوله :

سكران من غنج ومن رقة ... ومن هوى او شبه سكران

فقد كان المنتظر ان يأتي الشاعر بعد ان وصف بالسكر من الغنج والرقة والهوى باكثر مـن السكر . . لا بشبهه ! ولكن قاتل الله ضرورات الوزن والقافية ! .

وبعد ، فهذه هناتٌ هينات لعل الشاعر ان يستدركهـا في شعره المقبل ، بيد انها لا تمنع احداً من الترديد : ان ميشال بشير شاعر . . . وشاعر مجيد ! .

سهيل ادريس

دليل الاعارب الى علم الكتب وفن المكاتب

للاستاذ يوسف اسعد داغر – ٦٣٥ صفحة – مطابع صادر ريحاني – بيروت

من يتتبع حركة الانتاج الادبي والعلمي في لبنان ، خلال هذا العام يرى اسم الاستاذ يوسف اسعد داغر يأتي في الطليعة بين مكثري المنتجين في حقل تصنيف العلوم وفهرستها ، وقراء « الاديب » لا يجهلون اسم السيد يوسف داغر ، فهو امين دار الكتب اللبنانية واخصائي معروف بفن تنظيم المكتبات من معاهد باريس العليا .

وكتابه الجديد : «دليل الاعارب الى علم الكتب وفن المكاتب» يعتبر الاول من نوعه في اللغات الشرقية على الاطلاق وقد اقيم على تصميم علمي محكم الوضع هيأ لمؤلفه ان يقفز دفعة واحدة الى مصاف كبار المفهرسين في الشرق القديم امثال ابن النديم وحاجي خليفة وطاش كبرى زاده ، ولعله هو اول محاولة علمية واسعة تظهر في الشرق لتنظيم خزائن الكتب على نسق فني مستوحاة اصوله الكبرى من الطريقة الاميركية المعروفة بالطريقة العشرية خص فيها العلوم العربية والاسلامية والمسيحية الشرقية بمكان مرموق قد لا تجده في مناهج التنسيق المتبعة في الغرب .

وقد يحب القارىء الكريم ان يلم ولو بصورة شاملة عابرة بما يقوم عليه هذا السفر الخطير من جليل البحث العلمي .

الكتاب مقسم بعد هذا الى ثلاثة اقسام رئيسية يضع في اول كل قسم منها موضوعات القسم وعناوين فصوله وابحاث مطالبه ثم الاشارة الى المصادر والمراجع العلمية .

فالقسم الاول يقع في ثلاثة فصول يدور مجموعها على تنسيق الكتب والمكاتب مستعرضاً نشأة المعارف البشرية وتنسيق العلوم وتصنيف الكتب في المكاتب خالصاً بعد ذلك الى اثبات مناهج التنسيق في ثلاث مكتبات كبرى في الغرب هي دار الكتب الاهلية في باريس والمتحف البريطاني في لندن ومكتبة الكنغرس في واشنطن ، ثم تناول بالبسط والتيسير العلوم العربية والاسلامية وطرائق تنسيقها واعطى احسن مثل على هذه الطرائق كتـاب « مفتاح السعادة » لطاش كبرى زاده .

اما الفصل الثالث من القسم الاول فيتناول بالتعريف والنقد والتحليل فهارس المكتبة العربية في الخافقين مستعرضاً في سبعة مطالب مختلفة فهارس المطبوعات والمخطوطات العربية في الشرق (المطلب الاول والثاني) وفي الغرب (المطلب الثالث والرابع) ودور المحفوظات واهم مجاميعها وودائعهـا في الشرق والغرب (المطلب الخامس) ويستعرض في السادس اهم مجاميع منشورات الوثائق الرسمية في البلدان العربية : لبنان – سوريا – مصر وبيان المراجع التي تشير الى مجموعة المعاهدات الخاصة ببلدان الشرق العربي اما المطلب السابع فقد خصه بفهارس الثقـافة الغربية منوهاً باهم الادلة الموضوعة للتعريف بالآداب القومية : الانكليزية والاميركية والفرنسية والايطالية والالمانية .

اما القسم الثاني من الكتاب فيتناول التنسيق العشري بالتعريف والتبيين والتبسيط استعرض في فصلين مباحث عامة في التنسيق العشري وتصنيف مواضيع العلوم والمعرفة البشرية واقسام موادها وحقيقة هذا النظام وكنهه وتفرع المعرفة البشرية وتسلسل اعداد التنسيق ومباني العلوم وقابليتها للزيادة والتوسع وانواع جداول التنسيق وانواع الفهارس الكتابية واغراضها والنظام العشري وطريقة الاخذ به والتعديلات اللاحقة بالتنسيق العشري كما طبقها المؤلف على العلوم العربية والشرقية من مسيحية واسلامية :

ويلي ذلك تبسيط الجداول العشرة في التنسيق العشري . فيعطيك في سياق علمي متين تفاصيل هذه الجداول وما تتفرع اليه من ابواب وفصول واجزاء وفروع مع ترجماتها باللغة الفرنسية . ويكوّن مجموع ما تضمنته هذه الجداول من مصطلحات العلوم ومواضعات الفنون معجماً علمياً توفر المؤلف على ترجمته بدقة واتقان وصبر جميل وذلك برجوعه الى المظان العلمية التي عنيت بالترجمة العلمية على اختلاف موضوعاتها . وقد اثبت معظم هذه المراجع في ثبت طويل افرد له ذكراً في تضاعيف كتابه قبل الاخذ بتبسيط الجداول العامة يقع في زهاء عشر صفحات .

وقد اردف هذه الجداول وما اليها من الوف المواضيع العلمية والفنية والادبية بفهرس تحليلي ، ابجدي هجائي ، مفصل كامل . هو بمثابة مفتاح علمي للطريقة العشرية لا يمكن الاخذ بها دونه على الاطلاق .

هذا هو العمل الضخم الذي طلع به السيد يوسف داغر على العالم العربي بصمت وسكون وهدوء ، بعيداً عن الدعاوة الفارغة .

« ابن جلا »

١ ـ هذا الوطن

للاستاذ عدنان الراوي – ٥٣ صفحة – دار دجلة – بغداد

مجموعة شعرية جياشة بالعاطفة الوطنية الصادقة سجل الشاعر فيها مشاعر واحاسيس راودته حيناً من الدهر ظهرت بدياً على صفحات الجرائد العراقية ثم جمعت في هذا الكتيب .

ولا يسع القارىء لهذه القصائد الا ان يعجب بصدق احاسيس الشاعر التي تكاد تلمسها في كل بيت من ابياتها لا سيما في قصيدته الظواهر الجميلة التي تنطق بأسمى معاني الحب للوطن .

ولا احب قبل ان اختم كلمتي هذه الا ان اشير الى القصيدة التي استهل بها هذا الديوان الصغير وعنوانها « الوطن المهجور » ، وهي حوار بين الشاعر وقلبه يصور فيها حرارة الشك وسلطان الحيرة وهو يستفتي قلبه تارة والازهار حيناً والطيور تارة اخرى في لوعة على وطنه الحبيب الذي وطئته اقدام المحتل .

٢ ـ الطرائف

للاستاذ حنا غر – ٩٦ صفحة – مطبعة فاضل وجميل – الدورة – لبنان

هذه هي الحلقة الثالثة عشرة من سلسلة المناقشات الادبية ويتألف هذا الكتاب من اربعة فصول ، خُصّ الاول بالجمال الشعري والثاني بالنقد الادبي والثالث بالدراسة الادبية والرابع فصل خاص بدراسة حياة النابغة الذبياني وشعره . وقد استغرق الفصل الاول نصف الكتاب تقريباً وافاض فيه المؤلف الكلام عن الشعر وجماله استهلّه باستعراض لطيف لحدود الشعر كما وضعها الاقدمون والمحدثون من شرقيين وغربيين فقاده ذلك الى الكلام عن الفن في الشعر وتأثير العقل والفكر فيه ، كل ذلك بتسلسل بارع . وبعد ذلك تطرق الى نواحي الجمال في الشعر فاستعرض طائفة كبرى من الشعراء القدماء والمحدثين مؤيداً اقواله بشواهد متعددة من شعرهم .

واما الفصل الاخير فقد حضه المؤلف كما قلت بحياة النابغة الذبياني وشعره وهو دراسة تحليلية جدة وفقه يظهر فيها الجهد الشخصي واضحاً قوياً فجاءت ولا شك من احسن ما كتب عن النابغة حديثاً .

هذا والكتاب رغم صغر حجمه زاخر بمحتوياته ضخم بمادته يخرج منه القارىء مشبعاً بزبدة ما قرأ ومعجباً بجهد الاستاذ المؤلف العظيم .

٣ ـ سعد قال لي

للاستاذ احمد محمد جمال – ٥٣ صفحة – مكتبة الثقافة – مكة المكرمة

سعد هذا الذي يقول شاب وسيم نحيل وفير الدراية واسع المعرفة اذا قال احسن وافاد لهذا كان هذا الكتاب الذي نعرف به الآن من اتم الكتب الانتقادية التي تهدف الى اصلاح الجماعة والافراد .

ويتألف الكتاب من مجموعة جلسات كان يعقدها سعد ويأتي فيها على ذكر خواطره الانتقادية بلغة سليمة عذبة وفهم للامور مكين .

وقد طبع هذا الكتاب في مصر فجمع بذلك بين جليل الموضوع وجمال الاخراج .

« مصطفى »

جولة الأديب في شهر

ماذا رأيت عند الفنان رشيد وهبي

بقلم صلاح الاسير

كنت

اصبو يوم عرفت رشيداً على بساط مطل العمر، وكنا على جوار وصلات قرابة، فكنت اراه يجلس في اهتمام الى ورقة بيضاء كبيرة وقد امسك بقلم من الفحم وأجلس قبالته والده الشيخ الوادع لينقل اساريره من الحياة الى الفن الحي على تلك الورقة البيضاء الكبيرة، وهكذا كان شأنه ايضاً مع بقية افراد الاسرة والاصدقاء، فلقد كانت حكاية موهبة رشيد حديث مجالسنا ونحن بعد صغار،

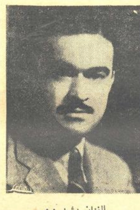
ولا يدري رشيد نفسه متى بدأت «هوايته» الفنية فليس لهذه «الهواية» يوم ميلاد، ولعلها ولدت معه واخذت تنمو معه وتترعرع على ذلك النحو الطفل الذي تحدثت عنه، فكانت هوايته موضع اعجاب وتندر وحديث! .. وتمضي في معركة الحياة ويظل رشيد على وفائه لفنه، يود لو تنفتح امامه آفاق التزود من مستلزمات الفن، ويحلم رشيد غب ذلك بمظاهر الطبيعة، ويقلب بصره النافذ على كل لون، وتنعقد الصلة عنده بين لون ولون في رفع كلفة وانسجام، ويجلس ليله الى قطعة من القماش ميتة ليصب فيها الحياة مع اللون والظل وتتنازعه بعد ذلك السمات والاسارير الى جانب الموضوعات الاسطورية، ويظل في عالمه وحده، يبني باطراف ريشة بارعة بعض ما كان وبعض ما هو كائن، كل ذلك دون ان يلجأ الى الدعاوة والاعلان .. فهو يؤثر الظل، ويعلم علم اليقين ان الفن الحق يعلن عن نفسه! ..

وتحلو له النقلة بعد ان ملأ عينيه من معين الطبيعة اللبنانية الى مصر، وهناك يرى جواً قليل التعاريج سهلاً منبسطاً، وتنطبع في ذهنه صور للطبيعة المصرية لا يلبث ان يسجلها بريشته، ولقد اكتملت عنده — او كادت — ملكة التصوير العاري،

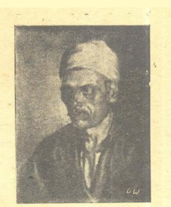
فهو يحسن — فيما رأيت — ان يخلع على صورته العارية حياة الحركة والوضع الى جانب التوفيق التعبيري عن فكرة التصوير العادي في مختلف اوضاعه ومراميه، فهذا الشاب الذي نشأ في اسرة محافظة حرره الفن فاجاد تحريره واذا بالصور العارية تدخل البيت على يد رشيد الذي ما كان هو نفسه يحسب انه سيحب «العري» في يوم من الايام ... ولكنه الفن والفن وحده يحطم الحدود والسدود ويدفع بالفنان الى ما يريده هو لا الى ما يريده الفنان! .

ويحس رشيد في الاعوام الاخيرة ان لفنه عليه حقاً فيقرر بعد تردد كثير ان يقيم معرضاً للوحاته في مصر، وفي المفوضية اللبنانية، ويكون حظ هذا المعرض نجاحاً مرموقاً حملت الينا صحف العام المنصرم الكثير من خبره ويومئذ فقط كان لبنان يضيف الى اسماء فنانيه الكبار فناناً جديداً! ...

ويعود رشيد في مطلع هذا الصيف بعد غياب اعوام على ضفاف النيل، ويحمل معه حصاد الاعوام الاخيرة، فاجلس اليه في زيارتي الاولى ينشر امامي قطافه لوحة لوحة، فكنت استمهله واتملى من ابداع التكوين والتأليف في صوره «كشهرزاد» زاخرة بالحياة، ويصر رشيد على تسمية طرفته «وادرك شهرزاد الصباح» واصررنا على تسميتها «شهرزاد» ففي هذه اللوحة تاريخ كامل يعود — بفضل الفن — الينا مخترقاً حجب العصور ... ها هي شهرزاد تقص حكاياتها الفاتنة على شهريار المليك الطاغية المولع بالاقتصاص من الجنس



الفنان رشيد وهبي



الآخر بعد خيانة زوجته الاولى له ، ولكن شهرزاد عرفت كيف تسلب بحديثها الماتع من المليك آفته في الانتقام كل ليلة وذلك بقتل امرأة غداة الليل ، في هذه الصورة صراع ماهر بين الجريمة والضحية ، وتظهر الضحية قوية في اللوحة لانها لن تكون الضحية ولن تكون المليك الطاغية بعد استمتاعه بحديث شهرزاد ضحية جديدة ! .. وتتكىء اختها وراءها تفكر في الذي سيكون ، وليس في اتكاء اختها « دنيا زاد » سوى الشك والخوف من سوء مصير شهرزاد :.. التي تمضي في حديثها مطمئنة الى ان يدرك شهرزاد الصباح ... هذا الصباح الذي حضنته اللوحة بحنان لا صراخ فيه ولا تناحر الوان واضواء ! ...

وليس يضير رشيد ان تكون طرفته هذه مسبوقة الموضوع فلقد جلاها جديدة في حركتها وحياتها ، والموضوع فوق هذا يتسع لكل فنان على ان يعالجه بطريقته الخاصة ، واحسب ان « شهرزاد » عند رشيد تبرز مطمئنة سعيدة بعد ان وفق كل التوفيق في اخراجها على النحو الذي ترضى عنه هي قبل الناس جميعاً ! ...

وهذا الرأس ... رأس فلاح مصري ... سكنت الحركة في اساريره ، ينظر الى الحياة في بساطة عميقة وعلى خطوط وجهه تاريخ كفاح وسطور مجالدة .. هو هو كما ينبغي ان يكون فلا لون يصرخ ولا ظل في غير موضعه ، ولا صفة ظاهرة ليست فيه !.

اما طرفته « الحالمة » فحلم موصول باهداب ... ووجه اصطفاه الحلم ونقله من عالم الى عالم ، وفي هذه اللوحة يحلو التأمل ويطيب الاسترسال في الاستقراء .. في هذه اللوحة تختفي « الكلاسيكية » ليطفو التعبير الحالم سليماً قوياً ، ان في حلم هذه الفتاة مواعيد ضاعت ومواعيد لم تضع .. حلم منسرح ضفتاه يأس وامل .. سعادة وشقاء ... وانتظار لما هو آت .. حلم واي حلم .. ومع ذلك لم يتعب رأسها الصغير بحمله ...

وهذا « الباب المتداعي » صورة لحياة ووجه لدور الكادحين ... ومع ذلك هادنته الطبيعة فاحاطته بدالية خضراء ، . تتساءل وانت امام هذه اللوحة : اية عاصفة دكت هذا الباب دكاً .. وتدفعك اللوحة على الرغم منك الى التفكير بساكنيه وبقطاف عناقيد الدالية في مواسم القطاف .

لن استرسل ، فالمجال اضيق من ان يتسع للاسترسال ، لان كل لوحة عند رشيد توحي موضوعاً مستقلاً ينبغي التبسط فيه ، وما همي من كلمتي هذه سوى عرض جانب بسيط من عمل كبير آتى ثماره على صعيد الفن ، وحسبي القول بعد هذا ان رشيداً بعد في ربيع الحياة فمستقبله ولا ريب خير من حاضره المجيد الموفق وبوسعي القول ان رشيداً عرف طريقه منذ زمان بعيد .. ولكننا عرفنا نحن هذا البلد طريقنا اليه اخيراً .. واخيراً فقط ! ...

صلاح الاسير





٢٦ ايلول سنة ١٩٤٧ – قررت الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة تأليف لجنة خاصة لمعالجة قضية فلسطين وقد عارضت الدول العربية في انشاء هذه اللجنة .

٢٥ – بعثت الحكومات العربية بمذكرات الى الحكومتين البريطانية والامريكية تعلن فيها انها ستقاوم كل محاولة ستقوم بها بريطانيا او هيئة الامم المتحدة لتقسيم فلسطين .

٢٦ – تكلم المستر كريتش جونس وزير المستعمرات البريطاني امام اللجنة الخاصة ببحث القضية الفلسطينية في هيئة الامم المتحدة فقال : ان الحكومة البريطانية توافق على انهاء الانتداب البريطاني ، وقد قررت بالنظر لعدم وجود الحل الموافق حتى الآن ان تسحب قواتها العسكرية والادارة المدنية في فلسطين وتتخلى عن صلاحياتها وسلطاتها هناك .

٢٩ – دعا المهاتما غاندي المستر تشرشل لزيارة الهند في سبيل درس الحالة هناك .

٣٠ – قدم مندوبو لبنان وسوريا ومصر والعراق بهيئة الامم اقتراحاً بوقف الهجرة اليهودية لفلسطين .

١ تشرين الاول – منعت روسيا بعثة مجلس الشيوخ الاميركي من الدخول الى بلادها لتفتيش سفارة اميركا بموسكو .

– صرح رئيس الوزارة الاسترالية بان الحكومة الاسترالية لن تشترك في حل المشكلة الفلسطينية بارسال جنود الى فلسطين لادارتها عسكرياً .

٢ – اضربت البلاد العربية احتجاجاً على تقرير لجنة التحقيق الدولية بشأن فلسطين .

٣ – ارسلت الحكومة البلغارية مذكرة جوابية لبريطانيا رفضت فيها الاحتجاج البريطاني على اعدام نيقولا بتكوف لانه مناقض لمبادىء القانون الدولي ، وتدخل بشؤون القضاء البلغاري .

٦ – تم تأليف مكتب دولي شيوعي من دول اوروبا الشرقية وممثلي الاحزاب الشيوعية في فرنسا وايطاليا ، مقره في بلغراد ، وقد اثار هذا المكتب كثيراً من الاهتمام والتعليقات في الاوساط السياسية الدولية .

– تكلم الاستاذ فاضل الجمالي امام اللجنة الدولية الخاصة بقضية فلسطين وانتقد سياسة ترومان المتناقضة واتهم الولايات المتحدة بتغذية الاجرام اليهودي بفلسطين .

٧ – رفض الرفيق فيشنسكي الترضية الاميركية بشأن القضية اليونانية وكال التهم للولايات المتحدة بانها تحاول ان تجعل من اليونان قاعدة عسكرية اميركية . والترضية الاميركية تتلخص في ان الولايات المتحدة توافق على اسقاط اتهاماتها ضد جارات اليونان الشمالية : البانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا ، مقابل المساهمة معها والموافقة مع سائر اعضاء الامم على اقامة لجنة دولية لمراقبة الحدود البلقانية .

٨ – تقدمت الكتلة السوفياتية برأيها امام اللجنة الخاصة بدرس قضية فلسطين ، فحبذت التقسيم ورفضت مطالب العرب القائلة بالوحدة السياسية والاستقلال السياسي .

٩ – اوصى مجلس جامعة الدول العربية المنعقد في لبنان باتخاذ تدابير احتياطية عسكرية على حدود فلسطين للمحافظة على سلامة العرب فيها بعد ان اعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من فلسطين ، وقد ارسلت كل من لبنان وسوريا ومصر جيوشها الى حدود فلسطين .

– قدم سفير الباكستان في الولايات المتحدة اوراق اعتماده الى الرئيس ترومان في البيت الابيض .

١٠ – صرح هرشل جونسون مندوب الولايات المتحدة لدى لجنة فلسطين بان بلاده تؤيد اكثرية لجنة التحقيق وتوافق على تقسيم فلسطين .

١٥ – وزعت قيادة جيش الولايات المتحدة نشرة على الجنود الاميركيين في كافة انحاء العالم تقول فيها ان الاتحاد السوفياتي هو في مركز يؤهله لشن الهجوم في اي اتجاه اراد على اوروبا غرباً وعلى الصين شرقاً وعبر القطب الشمالي الى اميركا الشمالية .

١٦ – صرح الجنرال مارشال امام مندوبي اتحاد العمل الدولي في بوسطن قائلاً : ان استقرار اوروبا السياسي مرتكز على استقلالها الاقتصادي ، وهذا الاستقرار ضروري بالنسبة لنا ولسلامنا وامننا .

١٧ – وقعت في لندن معاهدة بين بورما وبريطانيا تنص على انسحاب بورما من الكومونولث البريطاني لتصبح دولة مستقلة ذات سيادة ، وتدخل الاتفاقية في حيز التنفيذ ابتداء من كانون الثاني المقبل .

– اقترحت سوريا ومصر على الامم المتحدة تأجيل اتخاذ قرارها النهائي ريثما تقرر محكمة العدل الدولية صلاحياتها للبت بتقسيم فلسطين .

١٨ – وافقت اللجنة السياسية في هيئة الامم المتحدة على الاقتراح الاميركي بشأن تأليف جمعية صغيرة تقوم مقام هيئة الامم المتحدة اثناء فترة العطلة .

٢٠ – فاز حزب الجنرال ديغول فوزاً كبيراً بالانتخاب البلدي في فرنسا .

٢١ – اعلنت حكومة البرازيل انها قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي .

– القى الرفيق فيشنسكي خطاباً امام الجمعية العمومية لمنظمة الامم المتحدة رد فيه تقرير اللجنة السياسية القاضي بانشاء لجنة دولية في اليونان وطلب من الامم المتحدة ان توصي بسحب القوات الاميركية والبريطانية من اليونان بصورة عاجلة .

٢٢ – اعلنت التشيلي انها قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا .

– اجتمع في لندن ممثلو هولندا وجمهورية اندونيسيا بصورة غير رسمية لاستئناف المفاوضات لتسوية النزاع الاندونيسي الهولاندي .

٢٣ – رفض البرلمان الايراني الطلب الروسي القاضي بمنح الاتحاد السوفياتي امتيازات نفطية في ايران وعمد الى ايجاد برنامج وطني لاستثمار النفط لا دخل فيه للرساميل الاجنبية .

٢٤ – دعا الرئيس ترومان مجلس الكونغرس لعقد دورة استثنائية في ١٧ تشرين الثاني لدرس مشروع المساعدة المستعجلة لاوروبا .

– صرح شوماخر زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني : بأنه يجب على الولايات المتحدة وبريطانيا ألا تتابع تفكيك معامل الصناعات الالمانية لأن هذا العمل يؤدي الى افلاس مشروع مارشال فيما يتعلق بالمانيا .